

علم اجتماع الادب : نظامه الاساسي ومشاكله المنهجية

لوسيان غولدمان

1 - بدأ الحديث عندنا مؤخرا ، وخاصة في الدراسات النقدية الصحفية والاكاديمية ، عن لوسيان غولدمان وعن المنهج البنوي التكويني . ويمكن اعتبار هذه البداية ذات دلالة ايجابية ، لان التوجه نحو غولدمان ، وفتح النقاش حول منهجه وتطبيقه على النص الادبي المغربي يعتبر شيئا جديدا حقا في حياتنا الثقافية .

ونحن هنا - بمناسبة هذا الملف الخاص بالنقد - بدلا من السقوط في تكرار ما قام به الآخرون، بدلا من ادعاء استيعاب المنهج البنوي التكويني بكل ما يطرحه من ابعاد معرفية وتاريخية وتطبيقية ، فضلنا نقل نص من أهم نصوص غولدمان الى العربية ، وهو في رأينا اصح اسلوب للتعامل مرحليا مع هذا المفكر الفيلسوف الناقد ، الذي صارع الشكلائية بضراوة الى جانب العقلانية والتجريبية ، ويتعرض منهجه الان لنوع من المسح ، يساهم فيه حتى بعض النقاد التقدميين بالمغرب وبقية الاقطار العربية تحت غطاء التجديد والتجاوز .

2 - من بين النصوص المختلفة والمتعددة التي كتبها غولدمان ارتائنا ترجمة النص التالي ، الذي نعتقد جديرا بالترجمة قبل غيره لاسباب عدة منها انه يعرض بشكل متكامل ومنظم جل مبادئ المنهج البنوي التكويني في العلوم الانسانية - التي سعى لتشييده غولدمان . . ومنها انه كتب استنادا الى عمل تطبيقي - يكاد يكون اهم اعمال غولدمان على الاطلاق - وهو اطروحة « الاله المختفي » (التي سعى فيها للكشف عن البنيات الدالة المنظمة لفكر كل من باسكال وراسين) .

3 - لا ننفي أن صعوبات قد اعترضتنا ، أيضا ، أثناء

نقل النص الى العربية . فهناك ، مثلا ، التمايز القائم بين البيئة الثقافية المكتوب لها النص في الاصل وبين البيئة الثقافية المنقول اليها ، والذي يتجلى - داخل النص - في الاكتفاء - حين الاستشهاد على صحة بعض المبادئ النظرية العامة للمنهج الجديد - بالاشارة المقتضبة الى اسماء ونصوص أدبية يكاد يكون معظمها مجهولا بالنسبة للقارئ العربي ، في حين انها ليست كذلك بالنسبة للقارئ الاوروبي - او الفرنسي على الاقل - الذي دخلت في تراثه الفكري واضحت من مقومات شخصيته الحضارية الحالية . ثم هناك ايضا صعوبة اخرى تتجلى في ان اغلب المصطلحات الاساسية الواردة في النص جديدة ولم تحت بعد مقابلات دقيقة لها ، بالعربية ، وواسعة الاستعمال . او ان مقابلاتها الموجودة قديمة ولا تؤدي قط المعنى المطلوب .

تغلبا على الصعوبة الاولى ، أضفنا بعض الهوامش التعريفية التي بدا لنا ان لا غنى عنها لفهم النص . تاركين البعض الآخر لاجتهاد القارئ وبحثه الخاص .

وتغلبا على الثانية الحقنا بالنص معجما صغيرا لاهم المصطلحات المستعملة . وهو معجم لا نعتبره نهائيا ولا كاملا ، وانما هو مجرد اقتراح لمصطلحات بحث لنا أكثر قدرة على نقل روح المصطلحات الفرنسية الى العربية .

4 - نرجو ان نتمكن مستقبلا من تقديم نصوص اخرى لهذا الفيلسوف الناقد ، بالاضافة الى تطبيقات في المجالين الفلسفي والادبي يقوم بها مثقفون عرب ، بالغرب والمشرق . فاهتمامنا بفولدمان لا يمكن ان يكون مؤقتا ولا سريعا ، وانما هو علامة مرحلة نقدية ما زلنا لم نخطها بعد .

لقد اتاح علم الاجتماع البنيوي التكويني للثقافة الفرصة لظهور مجموعة من الاعمال المتميزة بعدد من الصفات على رأسها أن أصحابها ، وهم يسعون الى اقامة منهج اجرائي لاجل الدراسة الوضعية للوقائع البشرية ، وخاصة منها الابداع الثقافي ، وجدوا أنفسهم مرغمين على اللجوء الى تأمل فلسفي يمكن نعتة ، بصورة عامة ، بالجدلية .

وينجم عن ذلك أنه بإمكاننا عرض هذا الموقف كمجهود من البحث الوضعي قام بدمج مجموعة من التأملات ذات الطابع الفلسفي ، كما يمكن عرضه ، على العكس من ذلك ، كموقف فلسفي يهتم ، في المقام الاول ،

بالبحث الوضعي، وتوصل الى انشاء الاساس المناهجي (الميتودولوجي)
لمجموعة بأكملها من البحوث العينية .

وبما أنه سبق لنا أن اخترنا من بين طريقتي العرض هاتين ، ولاكثر
من مرة ، أولاهما ، فسنحاول اليوم اعتماد الثانية . ويجدر بنا هنا أن
نبشیر ، ومنذ البداية - دون كبير أمل بخصوص فائدة هذا التحذیر ، وذلك
لأن الاحكام القبلية راسخة الجذور - الى أن الملاحظات العامة التي سنذكر
بها ليست ذات غاية تأملية ، وانما هي ملاحظات صيغت فقط في نطاق ما هي
اساسية للبحث الوضعي .

ان أولى الاثباتات العامة التي يستند اليها الفكر البنيوي التكويني
هي تلك القائلة بأن كل تفكير في العلوم الانسانية انما يتم من داخل
المجتمع لا من خارجه ، وبأنه جزء - بهذه الاهمية أو تلك ، حسب الاحوال ،
طبعاً - من الحياة الفكرية لهذا المجتمع ، وبذلك فهو - من خلال هذا الاخير -
جزء من الحياة الاجتماعية الكلية . وعلاوة على ذلك ، فان مجرد تطور الفكر -
في نطاق كونه جزءاً من الحياة الاجتماعية - يحول (بضم الياء وكسر وتشديد
الواو) ، بهذه الدرجة أو تلك ، وتبعاً لاهميته وفعاليتها ، هذه الحياة
الاجتماعية نفسها .

وبذلك فان ذات الفكر في العلوم الانسانية تجد نفسها ، جزئياً على
الاقل ومع عدد معين من الوسائط ، جزءاً من الموضوع الذي تدرسه .
كما أن هذا الفكر لا يشكل ، من جهة أخرى ، بداية مطلقة ، وانما
تنظمه ، الى حد كبير ، مقولات المجتمع الذي يدرسه أو مقولات مجتمع
متفرع عنه : بمعنى أن الموضوع المدروس هو عنصر مكون (بتشديد وكسر
الواو) - بل واحد أهم العناصر المكونة - لبنية فكير الباحث أو الباحثين .

لقد لخص ميغل كل ذلك في صيغة وجيزة ولامعة : « هوية ذات الفكر
وموضوعه ، ، وهي صيغة لم نقم بغير التلطيف من طابعها الجذري - الناجم
عن مثالية ميغل التي تعود كل حقيقة ، بالنسبة لها ، الى الروح - معوضين
لها بصيغة أكثر مطابقة لموقفنا المادي الجدلي - الذي يرى في الفكر وجهاً
مهماً ، الا أنه وجه واحد فقط من أوجه الواقع - وذلك بحديثنا عن الهوية
الجزئية للذات بموضوع البحث ، وهي هوية تصدق لا على كل معرفة .
وانما هي كذلك فقط بالنسبة للعلوم الانسانية .

مع ذلك ، وكيفما كان الحال بالنسبة لهذا الاختلاف بين الصيغتين ،
فان كليهما تقودان الى التاكيد على أن العلوم الانسانية ليس لها أن تحصل
على طابع موضوعي في مثل موضوعية العلوم الطبيعية ، وعلى أن تدخل
القيم الخاصة ببعض الفئات الاجتماعية في بنية الفكر النظري قد أضحت
اليوم عاماً ولم يعد ممكناً تجنبه .

وبقولنا هذا فنحن لا نعني مطلقاً أن هذه العلوم لا تستطيع ، مبدئياً ،

الوصول الى دقة مماثلة لدقة العلوم الطبيعية ، وانما نعني فقط ان هذه الدقة ستكون مغايرة لتلك ، كما سيكون عليها ادماج تدخل بعض التقويمات التي يستحيل اقصاؤها .

والفكرة الاساسية الثانية لكل علم اجتماع جدلي وتكويني هي ان الوقائع البشرية اجوبة لذات فردية او جماعية ، تشكل في جملتها محاولة لتعديل وضع معين نحو اتجاه ملائم لطموحاته . وهذا يستتبع ان كل سلوك ، اذن كل حدث بشري ، يمتلك طابعا ذا دلالة ، لا يكون واضحا دوما وانما ينبغي على الباحث الكشف عنه من خلال عمله .

ومن الممكن ايضا صياغة نفس الفكرة بطرق متعددة ، كان نقول مثلا ان كل سلوك بشري (وحتى حيواني على الارجح) هو دائما في سعي لتعديل وضع تحس به الذات انعدامها لتوازن ، وذلك نحو اقامة التوازن ، او ان نقول ان كل سلوك بشري ، وكل سلوك حيواني على الارجح ، يمكن ترجمته بواسطة الباحث الى ألفاظ تدور حول وجود مشكلة عمالية ووجود سعي الى حلها .

انطلاقا من هذين المبدأين ، ينادي التصور البنوي والتكويني بتحويل جذري لمناهج علم الاجتماع والادب ، وهو تحويل كان جورج لوكاتش ، بلا منازع ، أول دعاة . لقد استندت كل الاعمال السابقة عليه - وأغلب الاعمال الجامعية منذ ذلك الحين - ولا زالت تستند ، في هذا الاتجاه ، على مضمون الاعمال الادبية والعلاقة بين هذا المضمون ومضمون الوعي الجمعي ، اي مضمون طرق التفكير والسلوك التي يقوم بها الناس في حياتهم اليومية . ومن هذا المنظور تصل بطريقة الحال الى النتيجة القائلة بان هذه العلاقات تصبح أوفر عددا ، وعلم اجتماع الادب أكثر فاعلية ، كلما أبان صاحب الكتابات المدروسة عن نقص الخيال البدع لديه ، واكتفى برواية تجاربه مدخلا عليها أقل عدد ممكن من التغييرات . نضيف الى ذلك ان على هذا النمط من الدراسات ، وبفعل منهجه ذاته ، أن يكسر وحدة العمل وهو يهتم منه ، خاصة ، بما هو فقط مجرد اعادة انتاج للواقع التجريبي والحياة اليومية . وباختصار ، فان علم الاجتماع هذا يتضح أكثر خصوبة كلما كانت الاعمال المدروسة أكثر تواضعا . وفضلا عن ذلك فانه يبحث في هذه الاعمال عن الوثيقة أكثر مما يبحث عن الادب .

ولا مجال للاستغراب ، والحالة هذه ، من ملاحظة أن الغالبية العظمى من المهتمين بالادب يعتبرون هذا النوع من الأبحاث ، في أحسن الاحوال مجرد أعمال مساعدة بهذا القدر من الفائدة أو ذاك ، وذلك حين لا يرفضونها في جملتها .

ان علم الاجتماع البنوي التكويني ينطلق ، بالمقابل ، من مقدمات ليست فقط مغايرة لتلك ، بل ومعارضة لها ، نحب أن نشير هنا الى خمس

من بين أهمها :

(أ) العلاقة الجوهريّة بين الحياة الاجتماعيّة والإبداع الأدبي لا تهم مضمون هذين القطاعين من الواقع البشري ، ولكنها تهم فقط البنى الذهنيّة ، وهي ما يمكن تسميته بالقولات التي تنظم في وقت واحد الوعي التجريبي لفئة اجتماعية معيّنة والكون التخيلي الذي يبدهه الكاتب .

(ب) تجربة الفرد الواحد هي تجربة أكثر إيجازا وأكثر تقلصا من أن تقدر على خلق بنية ذهنيّة من هذا النوع ، ولا يمكن لهذه الأخيرة أن تنتج إلا عن النشاط المشترك لعدد مهم من الأفراد الموجودين في وضعيّة متماثلة ، أي من الأفراد الذين يشكلون فئة اجتماعية ذات امتياز والذين عاشوا لوقت طويل وبطريقة مكثفة مجموعة من المشاكل وجدوا في البحث عن حل ذي دلالة لها . بمعنى أن البنى الذهنيّة أو - لكي نستعمل مصطلحا أكثر تجريدا - البنى المقولاتيّة ذات الدلالة ليست ظواهر فردية ، وإنما هي ظواهر اجتماعيّة .

(ج) العلاقة المشار إليها بين بنية الوعي الخاص بفئة اجتماعية ما والبنية التي تنظم كون العمل الأدبي تكون ، في أكثر الأحوال ملائمة للباحث متماثلة تماثلا دقيقا بهذا القدر أو ذاك ، إلا أنها غالبا ما تشكل أيضا مجرد علاقة ذات دلالة .

لذلك فمن الممكن أن يحصل ، من هذا المنظور - وهذا يحصل في أغلب الأحيان - أن تكون مضامين متنافرة تماما ، بل ومتعارضة متماثلة بنيويا أو توجد في صلة وظيفية على صعيد البنى المقولاتيّة . هكذا يمكن لكون تخيلي ، غريب عن العالم التجريبي تماما في الظاهر ، كخرافات الجن مثلا ، أن يكون مماثلا تماما ، في بنيته ، لتجربة فئة اجتماعية بعينها أو ، على الأقل ، مرتبطا بها بطريقة ذات دلالة . ولم يعد ثمة أي تناقض بين وجود علاقة وثيقة للإبداع الأدبي بالواقع الاجتماعي والتاريخي وبين أكثر الخيالات المبدعة قوة .

(د) إذا انطلقنا من هذا المنظور فسيصبح بمقدورنا لا أن ندرس قمم الإبداع الأدبي مثلما ندرس الأعمال المتوسطة فحسب ، وإنما سنتكشف الأولى ، خاصة ، على أنها ممكنة التناول من طرف البحث الوضعي ، ومن جهة أخرى ، فإن البنى المقولاتيّة التي يستند إليها هذا النوع من علم اجتماع الأدب هي ، على وجه التحديد ، ما يمنح للعمل الأدبي وحدته ، أي ما يمنحه أحد العناصر الأساسيّة المكونة لطابعه الجمالي النوعي ، وفي الحالة التي تهتمنا ، أحد العناصر المكونة لصفته الأدبيّة الخالصة .

(هـ) البنى المقولاتيّة ، التي تنظم الوعي الجمعي والتي يتم نقلها إلى الكون التخيلي المبدع من طرف الفنان ، ليست واعية وليست لا واعية بالمعنى الفرويدي للكلمة ، ذلك المعنى الذي يفترض كبتها ما ، ولكنها سيرورات

غير واعية مماثلة ، من بعض الجوانب ، لتلك التي تنتظم عمل البنى العضلية أو العصبية وتحدد الطابع الخاص لحركاتنا وإيماءاتنا ، دون أن تكون بسبب ذلك لا مكبوتة ولا غير واعية .

لهذا السبب فإن الكشف عن هذه البنى ، في أغلب الاحيان ، وفهم النتائج الادبي ضمن ذلك ، هو أمر يتعذر بلوغه على الدراسة الادبية المحايدة ، وعلى الدراسة المتجهة نحو النيات الواعية للكاتب أو نحو علم نفس الاعماق ، ولا يمكن أن يبلغه سوى بحث من النمط البنيوي والسوسيولوجي .

وتنتج عن هذه الاثباتات ، والحالة هذه ، نتائج مناهجية (ميتودولوجية) في غاية الاهمية . فهي تعني أن على الدراسة الوضعية في العلوم الانسانية أن تبدأ دائما بالسعي الى **تقطيع الموضوع** الذي تدرسه الى حد يتبدى معه هذا الموضوع كمجموعة من التصرفات ذات الدلالة ، مجموعة بمقدور بنيتها أن تحيط بأغلب الوجة التجريبية الجزئية التي تعرضها للباحث .

وهذا يعني ، بخصوص علم اجتماع الادب ، أن على الباحث - لكي يفهم العمل الذي هو بصدد دراسته - أن يتقيد ، في المقام الاول ، بالبحث عن البنية التي تكاد تشمل **كلية النص** ، وذلك استنادا الى قاعدة أساسية - نادرا ما يحترمها المختصون في الادب ، للأسف - وهي أن على الباحث أن يحيط بمجمل النص وأن لا يضيف اليه أي شيء ، وأن عليه تفسير تكوينه محاولا اظهار كيف ، وإلى أي حد ، يمتلك تكون (بتشديد وكسر الواو) البنية المكشوف عنه في العمل الادبي طابعا وظيفيا ، أي يشكل سلوكا ذا دلالة بالنسبة لذات فردية أو جماعية في وضعية معينة .

إن هذه الطريقة في طرح المسألة تستتبع عددا كبيرا من النتائج التي نعمل ، بعمق ، المناهج التقليدية في دراسة الوقائع الاجتماعية ، والادبية بصورة خاصة . لنذكر هنا بعضا من أهمها :

(I) عدم إيلاء أهمية خاصة ، في فهم العمل ، للنيات الواعية للأفراد . وللنيات الواعية لكتاب الاعمال الادبية حين يتعلق الامر بهذه الاعمال . فالوعي لا يشكل ، في واقع الامر ، سوى عنصر جزئي للسلوك البشري ، وهو يمتلك ، في أغلب الاحيان ، مضمونا غير مطابق للطبيعة الموضوعية لهذا السلوك .

وعلى العكس من أطروحات عدد معين من الفلاسفة ، أمثال ديكارت أو سارتر ، فإن الدلالة لا تظهر مع الوعي ولا تتوحد به . فالقطعة التي تطارد فأرا لها سلوك ذو دلالة واضحة تماما ، وذلك دون أن يكون ثمة بالضرورة ، وحتى على وجه الترجيح ، وعي ، وإن أوليا (I) .

ودون شك ، فإنه حين ظهر الانسان على السلم الاحيائي (البيولوجي) وظهرت معه الوظيفة الرمزية والفكر ، أصبح السلوك أعقد من السابق بما

لا يقارن ، وأضحت مصادر المشاكل ، والنزاعات والمصاعب ، وحتى امكانيات حلها ، أوفر عددا وأكثر تشابكا ، إلا انه ليس ثمة ما يشير الى ان الوعي يشمل ، دائما او حتى في بعض الاحيان ، مجمل الدلالة الموضوعية للسلوك . أما بخصوص الكاتب ، فيمكن التعبير عن ذلك بصورة أبسط بكثير : اذ يحدث في أغلب الاحيان أن انشغال الكاتب بالوحدة الجمالية يقوده الى كتابة عمل تشكل بنيته الشاملة ، حين يترجمها النقد الى لغة مفهومية ، رؤية مغايرة ، بل ومعارضة ، لفكره وللمعتقداته وللنوايا التي كانت تحركه حين حرر هذا العمل .

لهذا فان على علم اجتماع الادب (والنقد بوجه عام) أن يعامل النوايا الواعية للكاتب على أنها مجرد علامة من بين علامات عديدة أخرى ، وعلى أنها نوع من التأمل في العمل الادبي ، لا يحمل اليه سوى بعض الاقتراحات مثله في ذلك مثل أي مؤلف نقدي آخر ، ثم ان عليه أن يصدر حكمه على ضوء النص دون أن يعطيه أدنى امتياز .

(2) عدم المبالغة في تقدير أهمية الفرد حين القيام بالتفسير الذي هو ، قبل كل شيء ، البحث عن الذات الفردية أو الجماعية التي اتخذت البنية الذهنية المنتظمة للعمل الادبي بفضلها طابعا وظيفيا وذا دلالة .

فالعامل الادبي يكاد يمتلك دائما ، دون شك ، وظيفة فردية ذات دلالة بالنسبة لكاتبه ، إلا أن هذه الوظيفة الفردية هي - كما سنرى - في أغلب الاحيان غير مرتبطة ، أو مرتبطة قليلا جدا ، بالبنية الذهنية التي تنتظم الطابع الادبي الخالص للعمل ، ثم هي لا تخلقها مطلقا على أي حال .

ان كتابة المسرحيات تكتسب ، دون شك ، بالنسبة للفرد راسين - أو لنحدد فنقول ان المسرحيات التي كتبها هو نفسه تكتسب - دلالة ما ، وذلك انطلاقا من شبابه الذي قضاه في بور رويال ، ومن علاقاته اللاحقة مع رجال السرح ومع البلاط ، ومن علاقاته مع الجماعة الجانسينية وفكرها ، ثم انطلاقا من الوقائع العديدة التي شهدتها حياته والمعروفة عندنا بهذا القدر أو ذاك . إلا أن وجود الرؤية المأساوية كان ، قبل ذلك ، من المعطيات المكونة للاوضاع التي توصل راسين انطلاقا منها الى تحرير مسرحياته ، في حين أن اعداد هذه الرؤية من طرف ايدولوجيي الجماعة الجانسينية لبور رويال وسان سيران قد تم كرد وظيفي ذي دلالة للنبالة المثقفة على وضع تاريخي محدد . ولم يطرح ، لاحقا ، على راسين ، ذلك العدد المعين من المشاكل العملية والمعنوية التي أفضت به الى ابداع نتاج أدبي تبنيته رؤية مأساوية مدفوعة الى درجة قصوى من التماسك - لم يطرح عليه ذلك إلا بالنسبة الى هذه الجماعة وإلى ايدولوجيتها الناجزة بهذا القدر أو ذاك .

(3) واقع أن ما نخرج على تسميته بـ « التأثيرات » لا يمتلك أية

قيمة تفسيرية ويشكل ، على الأكثر ، معطى ومشكلة على الباحث تفسيرهما

ثمّة في كل لحظة عدد مهم من التأثيرات القابلة لان تمارس فعلها على كاتب ما ، وما ينبغي تفسيره هو لماذا لا يمارس منها اثره حقا سوى عدد قليل ، او سوى واحد فقط ، ثم لماذا يتم تلقي الاعمال التي مارست ذلك التأثير بعدد من التحرفات ، وبالتحديد منها تلك التحرفات الخصوصية ، في عقل الشخص الذي خضع لها ، والحال ان الجواب عن هذين السؤالين يقع في جهة نتائج الكاتب الدروس وليس - كما يعتقد عادة - في جهة النتائج الذي يفترض انه مارس عليه تأثيره .

ونختصر فنقول ان الفهم مسألة تتعلق بالتماسك الباطني للنص وهو يفترض ان نتناول النص حرفيا ، كل النص ولا شيء سوى النص ، وأن نبحث داخله عن بنية شاملة ذات دلالة ، أما التفسير فمسألة تتعلق بالبحث في الذات الفردية او الجماعية (ونظن ان الامر يتعلق دائما ، بخصوص النتائج الثقافي ، وللاسباب التي اشرفنا اليها اعلاه (2) ، بذات جماعية) التي تمتلك البنية الذهنية المنتظمة للنتاج الادبي بالنسبة اليها طابعا وظيفيا لاجل هذا السبب ذاته ، ذا دلالة .

ولنصف الى ذلك - فيما يتعلق بالقوانين الخاصة بالتفسير والتاويل - ان ثمة شيئين يظهران لنا من الاهمية بمكان قد تم الكشف عنهما بواسطة اعمال علم الاجتماع البنوي التكويني ومجابهتها للاعمال التحليلية النفسية :

(1) ان النظام الاساسي لطريقتي البحث هاتين ليس واحدا في كلا النظورين .

وذلك لانه يستحيل فصل التاويل عن التفسير حين يتعلق الامر بالليبيدو ، ليس خلال فترة البحث فقط ، بل وحتى بعد اتمامها ، في حين ان هذا الفصل ممكن في التحليل السوسولوجي ، فليس ثمة تاويل محايث لحلم معنوه ما او لهذيانه (3) ، وذلك لسبب واحد ، على الأرجح ، هو ان الوعي لا يمتلك ولو استقلالا ذاتيا نسبيا على صعيد الليبيدو ، اي على صعيد السلوك ذي الذات الفردية ، الوجه مباشرة نحو امتلاك الموضوع . وعلى العكس من ذلك فانه حين تكون الذات مفارقة للافراد ياخذ الوعي اهمية اكبر من ذلك بكثير - فليس هناك تقسيم للعمل ، وليس ثمة ، انطلاقا من ذلك ، نشاط ممكن دون اتصالات واعية بين الافراد المشكلين للذات - ويسعى الى انشاء بنية ذات دلالة .

ويشترك علم الاجتماع التكويني مع التحليل النفسي في ثلاثة عناصر على الاقل هلسي :

(1) التاكيد على أن كل سلوك بشري يشكل جزءا على الاقل من بنية واحدة ذات دلالة .

(ب) أنه لاجل فهم هذا السلوك ينبغي إدراجه في هذه البنية التي ينبغي على الباحث الكشف عنها .

(ج) التأكيد على أن هذه البنية لا يمكن فهمها حقا إلا إذا أحيط بها في تكوينها ، الفردي أو التاريخي على التوالي .

وكتلخيص نقول أن التحليل النفسي ، مثله في ذلك مثل علم الاجتماع الذي نفاذي به ، هو بنوية تكوينية .

وسيقوم الاعتراض هنا ، قبل كل شيء ، على نقطة أولى وهي أن التحليل النفسي يحاول تقليص كل السلوك البشري الى ذات فردية والى صيغة ، ظاهرة أو مصعدة ، من صيغ الرغبة في الموضوع . في حين أن علم الاجتماع التكويني يفصل أنماط السلوك اللبيفية التي يدرسها التحليل النفسي عن أنماط السلوك ذات الطابع التاريخي (والإبداع الثقافي جزء منها) التي تمتلك ذاتا مفارقة للأفراد والتي لا تستطيع التوجه نحو الموضوع إلا بتوسط انجذاب نحو التماسك . وينجم عن ذلك أنه حتى وإن كان كل سلوك بشري يندرج في ذات الوقت تحت بنية لبيفية وبنية تاريخية ، فإنه لا يمتلك دلالة واحدة في الحالتين ، وأن تقطيع الموضوع ليس موحدا بدوره . فبمقدور بعض العناصر المنتمية الى عمل فني أو الى كتابة أدبية (ولكن ليس العمل أو الكتابة في جملةهما) أن تندرج تحت بنية لبيفية ، الشيء الذي سيمكن المحللين النفسيين من فهمها وتفسيرها حين يربطونها بلا وعي الفرد . إلا أن الدلالات المكشوف عنها في هذه الحالة سيكون لها نظام أساسي من نفس طبيعة النظام المهيمن على كل رسم وكل كتابة ينتجها معقود ما . زد على ذلك أن نفس هذه الاعمال الأدبية أو الفنية ، المدرجة تحت بنية تاريخية ، ستشكل بنى نسبية تكاد تكون متماسكة وموحدة (بتشديد وكسر الحاء) ، متممة بقدر كبير من الاستقلال الذاتي النسبي ، وهنا يمكن أحد أهم العناصر المكونة لقيمتها الأدبية الخالصة أو الفنية الخالصة .

والواقع أن كل سلوك بشري وكل تظاهرة من التظاهرات البشرية هما وعلى درجات مختلفة ، مزيجان من الدلالات المنتمية الى هذا النظام الأساسي وذلك . فإذا كان الأشباع اللبيفي مهيمننا الى حد يكاد يدمر معه التماسك المستقل للعمل ، وجدنا أنفسنا أمام عمل معقود ، أما إذا اندرج الأشباع ، على العكس من ذلك ، في التماسك المستقل ، دون أن يمس به شيء تقريبا ، فإننا نصبح أمام تحفة فنية ، هذا مع العلم بأن أغلب التظاهرات البشرية تتموضع في مكان ما بين هذين الطرفين .

(2) ان الفهم والتفسير ، رغم النقاشات الموسعة التي دارت خاصة في الجامعة الألمانية حول طريقتي البحث هاتين ليسا متعارضين مطلقا بل وليس يختلف أحدهما عن الآخر .

وينبغي علينا أولا ، بخصوص هذه النقطة ، أن ننحي جانبا كل الأدبيات

الرومانسية العريضة حول المشاركة الوجدانية و « معرفة الغير » ، والتوحد الضروريين لأجل فهم عمل أدبي ما . أن الفهم يبدو بالنسبة لنا طريقة ذهنية قطعا ، تكمن في الوصف ، الدقيق ما أمكن لبنية ذات دلالة . ومن البديهي أن يكون ، مثله في ذلك مثل أية طريقة ذهنية ، مدعما بالاهتمام المباشر الذي يوليه الباحث لموضوعه ، أي بالتعاطف أو النفور ، أو ، على

العكس من ذلك ، بالامبالاة التي يدفعه إليها موضوع بحثه . إلا أن النفور هو ، من جهة ، عامل مساعد على الفهم مثله في ذلك مثل التعاطف (وما من أحد فهم وحدد الجانسينية سوى مضطهدها (بفتح الهاء) بصياغتهم لـ « المقترحات الخمسة » الشهيرة التي هي تحديد دقيق للرؤية المساوية) ، ويمكن لكثير من العوامل الأخرى ، من جهة ثانية ، أن تكون مساعدة أو غير مساعدة للبحث ، مثل الحالة النفسية الجيدة أو الصحة الجيدة ، أو على العكس من ذلك ، مثل وضعية كاربة أو ألم أسنان : وكل هذا لا علاقة له بالمنطق أو الاستيمولوجيا .

ومع ذلك ينبغي أن نذهب إلى أبعد من هذه النقطة فنقول أن الفهم

والتفسير ليسا طريقتين ذهنيتين مختلفتين ، وإنما هما طريقة واحدة محالة إلى أحداثيتين مختلفتين . وقد سبق وقلنا أن الفهم هو الكشف عن بنية دالة محايطة للموضوع المدروس ، في الوضع المحدد . وفي هذا العمل الأدبي أو ذلك . أما التفسير فليس سوى إدراج هذه البنية ، من حيث هي عنصر مكون (بتشديد وكسر الواو) ووظيفي ، في بنية شاملة مباشرة ، لا يسبرها الباحث ، مع ذلك ، بطريقة مفصلة ، وإنما فقط بالقدر الضروري لجعل تكوين العمل الذي يدرسه مفهوما . ويكفي هنا أن نأخذ البنية الشاملة موضوعا للدرس حتى يصبح فهما ما كان مجرد تفسير وحتى يجد البحث التفسيري نفسه مرغما على الاستناد إلى بنية جديدة أكثر اتساعا . وعلى سبيل المثل نذكر كيف أن فهم الخواطر أو مآسي راسين هو نفسه الكشف عن الرؤية المساوية المكونة للبنية الدالة المنتظمة لكل من هذه الأعمال في جملته ، في حين أن فهم بنية الجانسينية المتطرفة هو نفسه تفسير لتكوين الأفكار والمآسي الراسينية ، وعلى نفس النحو نذكر كيف أن فهم الجانسينية هو تفسير لتكوين الجانسينية المتطرفة ، وأن فهم تاريخ النبالة المثقفة للقرن السابع عشر ، هو ذاته تفسير لتكوين الجانسينية ، كما أن فهم العلاقات الطبقية في المجتمع الفرنسي للقرن السابع عشر ، هو تفسير لتطور النبالة المثقفة ، وهكذا .

وينجم عن ذلك ، من بين ما ينجم ، أن على كل بحث وضعي في العلوم الإنسانية أن يتموضع على مستويين مختلفين : مستوى الموضوع المدروس ومستوى البنية الشاملة المباشرة ، ويمكن الفرق بين المستويين من البحث ، خاصة ، في درجة التقدم التي يصل إليها البحث على

كل من الصعيديين .
 وفعلنا ، فليس لنا أن نعتبر دراسة موضوع ما كافية (سواء أكان هذا الموضوع نصا أم واقعا اجتماعيا ، الخ . .) إلا إذا كشفنا فيه عن بنية تجعلنا مظهرين بالقدر الكافي على عدد مهم من المعطيات التجريبية ، وخاصة منها تلك التي تبدو ذات أهمية فريدة (4) ، وذلك إلى الحد الذي يستبعد فيه ، أو يصبح بعيد الاحتمال على الأقل ، وجود تحليل آخر بمقدوره أن يقترح بنية أخرى تصل إلى نفس النتائج أو إلى نتائج أفضل منها .

ويختلف الوضع حين يتعلق الأمر بالبنية الشاملة . فهذه البنية لا تهم الباحث إلا من خلال وظيفتها التفسيرية لموضوع دراسته ، زد على ذلك أن ما سيحدد اختيار هذه الأخيرة من بين العدد الضخم إلى هذا الحد أو ذلك للبنى الشاملة التي تظهر ممكنة حين بحثنا للبحث - إن ما سيحدد الاختيار هو امكانية الكشف عن وظائفية من النوع المذكور . وعلى ذلك فإن دراستها ستتوقف حين يصل الباحث إلى انجاز كشف كاف للعلاقة الموجودة بين البنية المدروسة والبنية الشاملة وذلك قصد الإطلاع على تكوين البنية الأولى من حيث هي وظيفة لثنائية . ومن البديهي هنا أنه بمقدور الباحث أن يذهب ببحثه إلى أبعد من ذلك ، إلا أن موضوع البحث في هذه الحالة سيتغير في لحظة ما ، وما كان دراسة عن باسكال ، مثلا ، بإمكانه أن يصبح دراسة عن الجانسينية ، أو عن النبالة المثقفة ، الخ .

وبذلك ، فإذا تعذر الفصل بين التاويل المباحث والتفسير بواسطة الشامل أثناء القيام بالبحث ، وإذا لم يكن ممكنا بلوغ تقدم ما في كل من هذين الميدانين إلا عبر تذبذب دائم بينهما ، فإنه ليس أمرا قليل الأهمية أن نفصل بينهما بدقة في طبيعتهما وأثناء تقديم النتائج ، كما ينبغي أن نظل محتفظين في أذهاننا بواقع أن التاويل ليس وحده المباحث دائما في النصوص المدروسة ، في حين يظل التفسير خارجا عنها ، بل إن كل ما ربط **من النص بالوقائع الموجودة خارجه** - سواء أعلق الأمر ببنية اجتماعية أم بنفسية الكاتب أم بالبقع الشمسية - يمتلك طابعا تفسيريا ، وعلينا أن نحكم عليه من هذه الزاوية (5) .

والحال أنه إذا كان هذا المبدأ يبدو سهلا للاحتذاء ، فإن ثمة أحكاما قبلية ثابتة تجعله ينتهك دائما في التطبيق ، وقد أظهرت لنا اتصالاتنا مع اختصاصيين في الدراسة الأدبية إلى أي حد هو شاق ومتعب سعيهم لاتخاذ موقف أمام النص المدروس ، إن لم يكن مطابقا فعلى الأقل ، قريب من موقف عالم فيزيائي أو كيميائي حين يسجل نتائج تجربة ما . ولكي لا يجعلنا نعرف ، ولمرتتين ، سوى أن هكتور ، الميت ، قد تكلم .
 لا نذكر سوى بعض الأمثلة التي تخطر صدفه على بالنا الآن نقول إن أحد الاختصاصيين في تاريخ الأدب هو الذي فسر لنا يوما أن هكتور لا يقدر على

الكلام ، في أندروماك ، بسبب أنه ميت وبسبب أن الامر يتعلق ، من ثم ، بفكرة ومهية لامرأة دفعت بها وضعية غير مألوفة ولا مخرج لها الى أقصى درجات الحق . وللأسف فإن لا شيء من هذا يوجد في نص راسين الذي لا يجعلنا نعرف ، ولمرتين ، سوى أن هكتور ، الميت ، قد تكلم .

كذلك فسر لنا مؤرخ آخر للادب أن دون جوان لم يكن قادرا على التزوج كل شهر بسبب أن هذا الامر كان ، حتى في القرن السابع عشر ، مستحيلا من الناحية العملية ، وأنه كان ينبغي ، بناء على ذلك ، اعطاء هذا التأكيد في مسرحية موليير معنى تهكميا ومجازيا . ولا داعي لقول ان قبولنا بهذا المبدأ سيجعل من السهل جدا علينا أن نجعل نصا ما يقول أي شيء ، بل وأن نذهب في ذلك الى حدود تقويله عكس ما ينص عليه صراحة (6) .

ماذا نقول عن فيزيائي ينفي نتائج تجربة ما ، واضعا محلها نتائج أخرى من عنده ، لسبب واحد هو أن الاولى تبدو له بعيدة الاحتمال !

على ذات النحو فإنه من الصعوبة بمكان أن نجعل انصار التاويلات التحليلية - النفسية يقبلون بالواقع الاولى القائل بأنه - كيفما كانت الفكرة التي نحملها عن قيمة هذا النمط من التفسير ، بل وحتى لو رفعنا هذه القيمة الى أعلى مستوى - لا يمكن لنا أن نتحدث عن لا وعي خاص باورست ولا عن رغبة لاوديب في الزواج بامه ، ما دام اورست واوديب ليسا انسانين يتمتعان بالحياة بل مجرد نصوص ، كما أنه لاحق لنا في اضافة شيء ما ، كيفما كان هذا الشيء ، الى نص لا يتكلم لا عن اللاوعي ولا عن الرغبة في جماع المحارم .

وليس بمستطاع المبدأ التفسيري أن يكمّن ، حتى بالنسبة لتفسير تحليلي - نفسي جدي ، الا في لا وعي سوفوكل أو اخيل ، الا أنه لا يستطيع أبدا أن يكمّن في لا وعي شخصية أدبية لا يوجد منها سوى ما هو منصوص عنه بوضوح .

ويوجد لدى الادباء ، على صعيد التفسير ، ميل مزعج الى تفضيل التفسير السيكولوجي ، بصرف النظر عن مردوده ونتائجه ، وذلك لمجرد أنه يبدو لهم أكثر التفسيرات استساعة ، في حين أن انوقف العلمي الوحيد حقا ، وهذا امر بديهي ، هو النظر في كل التفسيرات المقترحة على نحو حيادي ما أمكن ، بما فيها التفسيرات التي تبدو أكثر ايمتادا عن العقل في الظاهر (لذلك اشرنا في فقرة سابقة مسألة البقع الشمسية ، حتى وان لم يسبق لاحد أن اقترحها جديا) مفاضلين بينها ، فقط وعلى وجه الحصر ، استنادا الى النتائج التي نصل اليها باستخدامنا لها ، والى الجزء المهم بهذا القدر أو ذاك من النص الذي نستطيع الاطاحة به بواسطة واحد منها .

وإذا انطلق عالم اجتماع الادب من نص يعرض بالنسبة له مجموعة من المعطيات التجريبية مماثلة لتلك التي يجد نفسه امامها كل بحث سوسيولوجي

آخر في نقطة انطلاقه ، فان أول ما يطرح عليه سيكون مشكلة معرفة النطاق الذي تكون فيه هذه المعطيات موضوعا ذا دلالة ، وبنية يستطيع بحث وضعي ما أن يمارس عمله عليها بطريقة مثمرة .

زد على ذلك أن وضع عالم اجتماع الادب والفن هو وضع محظوظ أمام هذه المشكلة اذا قارناه مع غيره من الباحثين في باقي الميادين ، وذلك لاننا نستطيع القبول بأن الاعمال التي خلدت في اذهان الجيل الذي ولدت بين ظهرانيه هي أعمال تشكل ، في أغلب الاحيان ، بنية متماثلة ذات دلالة (7) ، في حين أنه من المستبعد تماما أن يتطابق تقطيع الوعي اليومي ، بل وحتى النظريات السوسيولوجية ، في باقي الميادين ، مع مواضيع ذات دلالة . ويمكن القول ، مثلا ، انه ليس من المؤكد قط أن مواضيع دراسة مثل « الفضيحة » أو « الدكتاتورية » أو « الطباعة » ، الخ ، تشكل مواضيع من النوع المذكور . وكيفما كان الحال ، فان على عالم اجتماع الادب - مثله في ذلك مثل باقي علماء الاجتماع - أن يدقق في هذا الواقع وأن لا يسلم من أول وهلة بأن هذا العمل أو بأن تلك المجموعة من الاعمال التي يدرسها تشكل بنية موحدة (بكسر وتشديد الحاء) .

وطريقة البحث ، على هذا الصعيد ، هي ذاتها في كل ميادين علوم الانسان : اذ يجب على الباحث أن يوجد خطاطة ، أن يوجد نموذجا ، يتكون من عدد محدود من العناصر والعلاقات ، التي ينبغي عليه أن يحيط انطلاقا منها بالغالبية العظمى من المعطيات التجريبية التي يفرض أنها تشكل الموضوع المدروس .

ونستطيع أن نضيف - بعد تسليمنا بالوضعية المحظوظة للإبداعات الثقافية من حيث هي موضوع للدرس - أن بإمكان متطلبات عالم اجتماع الادب أن تكون أكثر من تلك الخاصة بزملائه . فالحاجة الى أن يشمل نموذجه ثلاثة أرباع النص أو أربعة اخماسه على الأقل امر لا يتضمن ، عمليا ، أية مبالغة ، وقد تم انجاز عدد معين من الدراسات التي يبدو أنها ترضي هذه الحاجة . واذا كنا نستعمل كلمة « يبدو » ، فلاننا لم نتمكن قط - ولمجرد أسباب تعود الى نقص في الوسائل المادية - من انجاز تفحص لعمل ما فقرة فقرة أو مقطعا مقطعا ، وهو عمل لا يتضمن ، من الناحية المنهجية ، أية صعوبة (8) .

ومن البديهي أن الباحث في ميدان علم الاجتماع العام ، في أغلب الاحيان ، وميدان علم اجتماع الادب ، خاصة حين يتناول البحث مؤلفات عديدة ، سيجد نفسه مدفوعا ، انطلاقا من هذه الضرورة ، الى ازالة سلسلة باكملها من المعطيات التجريبية التي بدت له في البداية جزءا من الموضوع المدروس ، ومدفوعا ، على العكس من ذلك ، الى اغناؤه بمعطيات أخرى لم يسبق له أن فكر فيها أثناء بداية عمله .

ولكيلا نذكر سوى مثال واحد على ذلك نقول انه ما ان شرعنا في دراسة سوسيوولوجية عن كتابات باسكال حتى وجدنا أنفسنا مدفوعين الى الفصل بين كتابيه « القرويون » و « الخواطر » ، على أساس أنهما يعودان الى رؤيتين للعالم ، واذن ، يعودان الى نموذجين ايبستيمولوجيين مختلف أحدهما عن الآخر ، لكل منهما أسسه السوسيوولوجية المتميزة عن أسس الآخر : فهناك ، من جهة ، الجانسينية المعتدلة ونصف - الديكارتية ، التي كان أرنو ونيكول أشهر ممثليها ، ثم هناك ، من جهة أخرى ، الجانسينية المتطرفة ، التي كانت مجهولة حتى ذلك الحين والتي كان علينا ان نبخسه عنها ونجدها في شخص لاهوتيا الرئيسي باركوس ، قس سان سيران ، الذي يقترب منه ، من بين من يقترب ، سانغلان ، مدير باسكال ، ولانسيلو ، أحد مربي راسين ، ثم الام أنجيليك (9) . وقد قاننا الكشف عن البنية المساوية التي تطبع أفكار باركوس وباسكال ، من جهة ثالثة ، الى ادخال أربع من أهم مسرحيات راسين الى موضوع البحث وهي : **أندروماك** ، **سريطانيكوس** ، **بيرينيس** ، و**فيدرا** ، وهي نتيجة مفاجئة ، بالاحرى ، لمؤرخي الادب أولئك الذين كانوا يحاولون ، حتى ذلك الحين ، مخدوعين بظاهر السطح ، ايجاد علاقات بين بور روايال وعمل راسين فيبحثون عنها على صعيد المضمون ويتجهون ، خاصة ، نحو المسرحيات المسيحية ، ايستر **واتالي** ، وليس نحو المسرحيات المحدث ، مع ان مقولاتها الذهنية تتطابق تمام التطابق مع بنية الفكر المنتمية الى الجماعة الجانسينية المتطرفة .

ومن الناحية النظرية ، فان نجاح هذه المرحلة الاولى من البحث وصحة نموذج من نماذج التماسك يتوطدان ، طبعا ، استنادا الى واقع ان هذا النموذج يحيط بجملة النص كلها تقريبا . أما من الناحية العملية ، فثمة ، بالاضافة الى ذلك ، معيار آخر - وهو ليس معيار حقوق بل معيار واقع - هو في حد ذاته علامة أكيدة بما فيه الكفاية لان تضعنا على الطريق الصائبة : وهو واقع ان بعض تفاصيل النص ، التي لم يسبق لها قط أن أثارت اهتمام الباحث الى ذلك الحين ، تظهر بغتة مهمة وذات دلالة في نفس الوقت . ولنذكر هنا ، أيضا ، بعض الامثلة :

لقد أنطق راسين في « أندروماك » شخصا ميتا ، وذلك في عصر كان الاحتمال يشكل فيه قاعدة يكاد الكل يجمعون على القبول بها . فكيف يمكن لنا أن نحيط بفظافة بارزة من هذا النوع ؟

لعله يكفي ان نجد خطاطة الرؤية التي تنتظم فكر الجانسينية المتطرفة لكي نلاحظ ، بالنسبة لهذه الاخيرة ، أن صمت الاله وكونه مجرد متفرج يرتبط لزوما بواقع آخر هو انه ليس ثمة أي مخرج داخل المجتمع يسمح بحماية الاخلاص للقيم ، وليس ثمة أية امكانية للعيش في العالم بشكل مقبول ، وأن كل محاولة للقيام بذلك تصطدم بالحاجات المتعددة التحقيق

وغير المعروفة عمليا ، فوق ذلك ، من طرف الاله ، حاجيات تنمظهر اغلب الاحيان في صيغة متناقضة ، ان التعبير الدنيوي عن هذا الموقف في مسرحيات راسين يصل الى وجود شخصيتين بكماوتين ، او قوتين بكماوتين ، تجسدان حاجيات متناقضة : هكتور الذي يطلب وفاء اندروماك واستياناكس الذي يطلب حمايتها ، حب جوني لبريطانيكوس الذي تطلب منه ان يحميها ، وعفة هذا الاخير الذي يطلب منها ان لا تقوم بأية تسوية مع نيرون : الشعب الروماني وحب بيرينيس ، ثم الشمس وفينوس مى **سيدرا لاحقا** .

واذا كان صمت هذه القوى او هذه الكائنات في المسرحيات المجسدة لتلك الحاجيات المطلقة مرتبطا ، مع ذلك ، بغياب اي حل داخل المجتمع ، فمن البديهي انه ما ان وجدت اندروماك ، على العكس ، خلا بدا لها معه ممكنا الزواج ببيروس لحماية استياناكس ، وممكنا ان تقتل نفسها قبل ان تصبح زوجته حفاظا على وفائها ، حتى لم يعد صمت هكتور وانستياناكس متطابقا مع بنية المسرحية ، وان الضرورة الجمالية ، وهي اقوى من القاعدة الخارجية ، لتصل الى اقصى حد ممكن من استبعاد الحوادث بالنسبة للميت الذي تكلم وتشير الى امكانية لتجاوز التناقض .

وكمثال ثان نأخذ المشهد الشهير القائم على الدعوة الى السحر فسي مسرحية فاوست لغوته ، ذلك المشهد الذي يتوجه فاوست فيه بالخطاب الى ارواح العالم الاكبر وارواح الارض التي تعود الى فلسفتي كل من سبينوزا وهيغل . ان رد الثاني منهما يلخص جوهر المسرحية ذاته ، بل ويلخص ، فوق ذلك ، جوهر جزئها الاول : اي ذلك التعارض بين فلسفة الانوار التي كان مثلها الاعلى هو المعرفة والفهم ، من جهة ، وبين الفلسفة الجدلية المنحورة حول الفعل ، من جهة أخرى . والحوار الذي تنطق فيه روح الارض قائلة : « انت لا تشبهني ، وانما انت تشبه الروح التي تفهمها » ليس مجرد رفض ، وانما هو تبرير له ايضا : فاوست لا يزال في مستوى « الفهم » ، اي في مستوى روح العالم الاكبر التي يريد ، تحديدا ، تجاوزها . وسوء لمن يستطيع الالتحاق بروح الارض الا حين يجد الترجمة الحقيقية لانجيل القديس جان « في البدء كان الفعل » وحين يقبل باتفاق مع مفيستوفيايس (الشيطان) .

وعلى نفس النحو ، اذا كان العصامي ، في غثيان سارنر ، - العصامي الذي يمثل هو بدوره روح عصر الانوار - يقرأ كتب الخزانة العامة تبعا لنظام ترتيبها في الجداول ، فذلك لان الكاتب ، عن وعي او عن غيره ، قد وجه نقده اللاذع الى قسمة من اهم قسّمات فكر الانوار : وهي تلك القائلة بإمكان نقل المعرفة بواسطة قاموس ترتب فيه المعارف تبعا لنظام الفبائي (يعني هنا ان نتذكر قاموس بايل ، والقاموس الفلسفي لفولتير ، ثم

خاصة ، الموسوعة) .

وما أن يبلغ الباحث أقصى قدر ممكن من التقدم في البحث عن التماسك الداخلي للعمل وعن نموذج البنيوي ، حتى يصبح عليه أن يتجه نحو التفسير .

وهنا ينبغي علينا أن نستطرد بعض الشيء حول نقطة سبق لنا أن مررنا بها مرورا عابرا . وهي أن هناك فعلا - كما سبق أن قلنا - اختلافا جذريا بين علاقة التأويل والتفسير خلال البحث ، وبين الطريقة التي تظهر عليها هذه العلاقة عند نهاية البحث . فالواقع أن التفسير والفهم يتعززان ، خلال البحث ، بشكل متبادل ، بحيث أن الباحث يجد نفسه مدفوعا للعودة باستمرار الى الواحد منهما والآخر ، والعكس بالعكس ، في حين أنه يستطيع عند إيقافه البحث لعرض نتائجه - بل ويجد نفسه مرغما على - الفصل ، بطريقة دقيقة ما أمكن ، بين فرضياته التأويلية المحايثة للعمل وبين فرضياته التفسيرية المفارقة له .

ولأننا نريد الإلحاح على التمايز بين الطريقتين ، فسنبطو هذا العرض انطلاقا من افتراض خيالي لوجود تأويل متقدم الى أقصى حد يفضل التحليل المحايث ، تأويل لا يتجه الا لاحقا نحو التفسير .

إن البحث عن التفسير يعني البحث عن حقيقة خارجة على العمل وتوجد ، على الأقل ، في علاقة تنوع ملازمة مع بنية هذا الأخير (وهو شيء نادر جدا في علم اجتماع الادب) ، أو ، كما هو الحال في أغلب الاحيان ، في علاقة تماثل أو في مجرد علاقة وظيفية (بالمعنى الذي تأخذه هذه الكلمة في علوم الحياة أو في علوم الانسان) ، أي من حيث هي بنية تؤدي وظيفة ما .

ويستحيل أن نقول بشكل قبلي ما هي الحقائق الخارجة على العمل التي نستطيع القيام بوظيفة تفسيرية من هذا النوع بالنسبة الى صفاتها الادبية الخاصة . ومع ذلك فهناك معطى من معطيات الواقع هو أن مؤرخي الادب والنقاد قد لجأوا - بقدر ما اهتموا الى اليوم بالتفسير - بشكل كلي الى عام النفس الفردي للكاتب ، كما لجأوا أحيانا ، بشكل أقل تواترا ، وخاصة منذ زمن قصير نسبيا ، الى بنية فكر بعض الفئات الاجتماعية . لذلك فلا جدوى اللحظة اذن من النظر في فرضيات تفسيرية أخرى ولو أنه لاحق لنا البتة في اقصائها قبليا .

غير أنه ما أن نفكر بشكل أكثر جدية في التفسيرات السيكلوجية حتى تطرح أمامنا عدة اعتراضات حاسمة .

أولها ، وهو أقلها أهمية ، أننا لا نملك سوى معرفة جد ضئيلة عن نفسية كاتب لم يسبق لنا قط أن عرفناه ، أو كاتب توفى ، كما يحصل في أغلب الاحيان ، منذ سنوات ، بحيث أن أغلب التفسيرات النفسية المزعومة هي مجرد انشاءات ذكية ولطيفة بهذا القدر أو ذاك لنفسية وممية ، يتم

خلقها في أغلب الاحيان استنادا الى الشهادات المكتوبة ولاسيما العمل ذاته .
اننا نصبح في هذه الحالة ليس أمام حلقة فقط ، وانما أمام حلقة مفرغة ،
ذلك لان علم النفس التفسيري المزعوم ليس سوى اطناب خارج عن حدود العمل
الذي يفترض أنه يفسره .

وثاني الحجج - وهي أكثر جدية من سابقتها - هي أن التفسيرات
السيكولوجية لم تنجح قط ، حسب علمنا ، في الاحاطة بجزء يستحق الذكر من
النص ، وأن تلك الاحاطة لا تشمل دائما سوى بعض العناصر الجزئية أو
بعض الملامح العامة الى حد كبير . والحالة هذه ، فإن كل تفسير لا يحيط
كما سبق أن قلنا ، سوى بـ 50 الى 60 ٪ من النص ، لا يكتسب أهمية
أهمية عامة محورية ما دام بإمكاننا أن نقيم دائما تفسيرات أخرى تشرح
جزءا من النص له نفس حجم الجزء الاول حتى وان لم يكونا ، بطبيعة
الحال ، متماثلين . وإذا اكتفينا بنتائج من هذا النمط فانه سيصبح
بمقدورنا في أي وقت كان أن نخلق باسكالا صوفيا أو ديكارتيا أو توماويا .
أو نختار راسينا كورنيليا ، ومولييرا وجوديا ، الخ . وبذلك يصبح معيار
المفاضلة بين تأويلات عدة هو الخيال اللامع أو الذكاء الخاص بهذا الناقد أو
ذاك بالمقارنة مع ناقد آخر ، وهو شيء لا يمتلك ، بطبيعة الحال ، أدنى
علاقة بالعالم .

ثم يأتي الاعتراض الثالث على التفسيرات السيكولوجية - ولعله
أكثرها أهمية - وهو أنها اذا كانت تحيط - مثلما هو الشأن هنا دون شك
- ببعض أوجه وبعض صفات العمل الأدبي ، فإن ذلك يظل دائما محصورا
في أوجه وصفات لا تمتلك ، حين يتعلق الامر بالأدب ، أي طابع أدبي ،
ولا تمتلك ، حين يتعلق الامر بنتائج فني ، أي طابع جمالي ، ولا ، حين
يتعلق الامر بعمل فلسفي ، أي طابع فلسفي ، الخ . بل وحتى أفضل
ونجح التفسيرات التحليلية النفسية لعمل ما سوف لن تتمكن قط من
اطلاعنا على ما يميز هذا العمل عن كتابة أو رسم أنجزهما معنوه ما ، وهما
عملان يستطيع التحليل النفسي تفسيرهما بنفس الدرجة ، بل وربما بدرجة
أرقى ، بواسطة طرق مماثلة لتلك التي يستعملها لمعالجة العمل الفني .

ويبدو لنا أن السبب في هذه الوضعية يعود ، بالمقام الاول ، الى واقع
أنه اذا كان العمل تعبيريا في نفس الوقت عن بنية فردية وعن بنية جماعية
فانه يتمظهر ، من حيث هو تعبير فردي ، خاصة ، كـ :
(أ) اشباع مصعد لرغبة في امتلاك الموضوع (أنظر التحاليل الفرويدية
أو التحاليل التي تستلهم من فرويد) .

(ب) إنتاج لعدد معين من التركيبات النفسية الخاصة التي تستطيع التعبير
عن نفسها في بعض خصوصيات الكتابة .

(ج) إعادة إنتاج أمينة أو مشوهة بهذا القدر أو ذلك لعدد معين من

المعارف المكتسبة أو التجارب المعاشة .

ولا شيء من هذا يشكل ، والحالة هذه ، دلالة أدبية أو جمالية أو فلسفية ، باختصار ، لا شيء منه يشكل دلالة ثقافية .

ولكي نظل في مجال الادب ، نقول أن مدلول عمل ما ليس هو هذا السرد أو ذاك - فمع أننا نجد نفس الاحداث في أورستيا اخيل ، والكثرا جبرودو ، وذباب سارتر ، فإن هذه الاعمال الثلاثة لا تشترك ، بداهة ، في أي شيء جوهري - ولا هو نفسية هذه الشخصية أو تلك ، بل وليس هو تلك الخصوصية الاسلوبية التي تتقرد في العمل بهذا القدر من الكثرة أو ذاك . بل أن مدلول العمل ، من حيث هو نتاج أدبي ، يمتلك دائما نفس الطابع : ألا وهو كون متماسك تجري بداخله الاحداث ، وتتموضع نفسية الشخصيات ، وتندمج بداخل تعبيره المتماسك آليات الكاتب الاسلوبية . والحال أن ما يفصل نتاجا فنيا عن كتابة معتوه ما ، تحديدا ، هو واقم أن هذا الأخير يتحدث عن رغباته فقط لا عن كون له قوانينه ومشاكله الخاصة به .

وعلى العكس من ذلك ، يتفق أن التفسيرات السوسولوجية للمدرسة اللوكاتشوية - وإن كان عدد أعضائها لا يزال ضئيلا - تطرح بدقة مشكلة العمل الأدبي من حيث هو بنية موحدة (بتشديد وكسر الحاء) ، ومشكلة القوانين التي تنتظم كونه والرابطة الموجودة بين هذا الكون المبنين (بفتح الباء) والشكل الذي عبر فيه عن نفسه . ويتفق أيضا أن هذه التحاليل تحيط - عندما تتجح - بجزء كبير جدا من النص يكاد يشمل في أغلب الأحيان كليته . ويتفق أخيرا أنها تطلعننا في أغلب الأحيان ليس فقط على أهمية ودلالة العناصر التي سبق وأفلتت تماما من النقد متيحة لنا بذلك امكانية اقامة روابط بين هذه العناصر وبين باقي النص ، وإنما هي تكشف لنا ، فوق ذلك ، عن العلاقات المهمة ، والتي لم يلاحظها أحد حتى ذلك الحين ، بين الوقائع المدروسة وبين عدد كبير من الظواهر الأخرى التي لم يسبق للنقاد ولا للمؤرخين أن فكروا فيها حتى ذلك الحين . وهذا أيضا سنكتفي ببعض الأمثلة :

كنا نعرف دائما أن باسكال قد عاد في أواخر حياته الى العلوم والى العالم ، مادام قد قام بتنظيم مسابقة عامة حول مشكلة (الروايت) ، وحول أولى الناقلات العمومية : تلك العربية ذات الاسطح الخمسة . ومع ذلك لم يربط أحد بين هذا السلوك الفردي وبين تحرير كتاب « الخواطر » ، ولا سيما المقطع المركزي لهذا العمل ، مقطع الرهان (على وجود الاله) . وفقط في تاويانا - حين ربطنا بين صمت الاله واليقين من وجوده في الفكر الجانسيني ، وبين الوضعية الخصوصية للنبالة المثقفة في فرنسا بعد الحروب الدينية ، وبين استحالة إيجاد حل داخل المجتمع يرضي المشاكل

التي تجدها أمامها - تجدد لنا الصلة الموجودة بين أكثر الصيغ تطرفا لهذا الفكر ، وهي صيغة تدفع بالشك الى أكثر تعبيراته تطرفا ممددة له من الارادة الالهية الى وجود الالهية ذاتها ، وبين موضعة رفض العالم لا في العزلة ، أي خارج العالم ، وانما في الداخل ، وذلك باعطاء الرفض طابعا يجعله داخل المجتمع (10) .

وعلى نفس النحو ، ما أن ربطنا مكونات الجانسينية بين رجال القانون (النبالة المثقة) بتغيير السياسة الملكية وولادة الملكية المطلقة ، حتى أمكننا ملاحظة أن تحول الارستقراطية الهوغونوتية (البروتستانتية الفرنسية) الى الكاثوليكية لم يكن سوى الوجه الآخر لنفس العملة النقدية ، وأن التطورين يشكلان معا سبورة واحدة .

ونستطيع اضافة مثال آخر ، يذهب الى حدود مسألة الشكل الادبي .
يمكنني أن نقرأ مسرحية **دون جوان** لموليير حتى نرى أن لها بنية تختلف عن بنى مسرحيات نفس الكاتب . فعلا ، فإذا كان ثمة أمام أورغون والميسيت وأرنولف وهارباغون عالم من العلاقات البين - انسانية ، ومجتمع ، وأمام الثلاثة الاولين شخصية تعبر عن الرشاد المجتمعي وعن القيم التي تنظم كون المسرحية (كليانت ، فيلينيت وكريزالد) ، فانه ليس ثمة شيء يشبه ذلك في **دون جوان** ، فسغاناريل لا يمتلك سوى حكمة الشعب الخسيسة ، تلك الحكمة التي نجدها تقريبا عند كل إجراء وأجيرات باقي مسرحيات موليير ، بحيث أن حوارات دون جوان ليست في الواقع سوى مونولوجات تقوم فيها شخصيات مختلفة لا تمتلك أية علاقة مع بعضها البعض - عي الفير ، الاب ، والشيخ - بانتقاد سلوك دون جوان قائلة له أنه سينتهي الى اثاره الغضب الالهى ، دون أن يستطيع اتقاءه بأي طريقة من الطرق . وتتضمن المسرحية ، فوق ذلك ، استحالة مطلقة : هي التأكيد على أن دون جوان يتزوج كل شهر ، الشيء الذي كان مستبعدا ، بطبيعة الحال ، في الحياة الواقعية لذلك العصر . والحال أن التفسير السوسيولوجي يستطيع الاحاطة ، بسهولة ، بكل هذه الخصوصيات ، لقد كتبت مسرحيات دوليير وهي تضع نصب أعينها نبالة البلاط ، وليست المسرحيات الهزلية الهامة المتميزة أوصافا مجردة ولا تحاليل سيكولوجية ، وانما هي أهاج تنتمي الى فئات اجتماعية واقعية ، تتركز صورتها في ملمح سيكولوجي أو مزاجي معين : انها مسرحيات تستهدف الشخص البورجوازي ، الذي يجب النقود ولا يفكر في أنها قد صنعت ، قبل كل شيء ، لاجل أن تنفق ، والذي يريد تأكيد سلطته في العائلة . ثم الذي يريد أن يصبح نبيلًا ، وتستهدف نصير وعضو جمعية سان - ساكرومان اللذين يتدخلان في حياة الآخرين ويناضلان ضد أخلاق البلاط الليبرالية ، كما تستهدف الجانسيني - الجدير بالاحترام دون شك لولا أنه متصلب جدا ورافض لادنى تسوية .

لقد استطاع موليير أن يعارض كل هذه الانماط الاجتماعية بالواقم الاجتماعي ، كما يراه ، وبالأخلاق الخاصة به ، تلك الأخلاق الداعسة والابيقورية : حرية المرأة ، الاستعداد للتقديم التنازلات ، وزن الأشياء وتقديرها . وعلى العكس من ذلك ، فإن الأمر يتعلق ، في مسرحية دون جوان لا لفئة اجتماعية مغايرة ، وإنما بأفراد يبالفون ، داخل نفس الفئة التي يعبر عنها عمل موليير ، ويتجاوزون الحدود . لهذا يستحيل أن نعارض دون جوان بأخلاق مغايرة لأخلاقه . وكل ما نستطيع قوله له هو أن الحق معه في أن يفعل ما فعله ، لا في أن يبالغ ويذهب إلى حدود اللامعقول . زد على ذلك أن دون جوان لا يصبح شخصية ايجابية تماما إلا في الميدان الذي تقبل فيه أخلاق البلاط - نظريا على الأقل - بالذهاب إلى أقصى الحدود ولا تعرف المغالاة : أي في ميدان الشجاعة والبسالة ، يضاف إلى هذا أن الصواب كان معه وهو يعطي الصدقة للمتسول ، إلا أنه لم يكن معه حين فعل ذلك بكيفية تجديفية . فليس من الضروري قطعا أن يؤدي ما عليه من دين ، إلا أنه لا ينبغي المبالغة في السخرية من السيد ديماننش (وموقف دون جوان هنا أيضا ، ليس سمحا حقا) . وأخيرا ، بما أن المشكلة الرئيسية المتنازع حولها بالنسبة للأخلاق الداعرة هي ، بطبيعة الحال ، مشكلة العلامات مع النساء ، فقد كان على موليير تبين أن الحق مع دون جوان في أن يفعل ما فعله ، إلا أنه ، هنا أيضا ، يتجاوز الحدود ، والحال أنه لا يمكن تحديد هذا المقياس بطريقة دقيقة خارج الواقع المشار إليه أعلاه والكامن في أنه يبالغ بمهاجمته للفرويات بدورهن وفي أنه لا يلتزم بحدود رتبته . فلم يكن بمسقطاع موليير القول بأن دون جوان كان على خطأ باغوائه امرأة كل شهر ، في حين كان عليه أن يكتفي باغواء واحدة كل شهرين أو ستة أشهر ، ومن هنا يأتي الحل الذي يعبر تمام التعبير عما كان ينبغي قوله : وهو أن يتزوج دون جوان ، وما من شيء يستوجب اللوم في ذلك ، بل أنه من الأحسن القيام به ، بيد أنه يتزوج ، للأسف ، كل شهر ، وهو شيء مفال حقا !

ومثاما تحدثنا في هذا المقال ، بصورة خاصة ، عن الاختلافات القائمة بين علم الاجتماع البنيوي للادب من جهة وبين التفسير التحليلي النفسي أو التاريخ التقليدي للادب من جهة أخرى ، نريد أيضا أن نكرس فقرة للتحدث عن الصعوبات الإضافية التي تفصل علم الاجتماع التكويني عن البنيوية الشكلانية من جهة ، وعن التاريخ التجريبي غير السوسيولوجي من جهة ثانية .

إن مجموع السلوك الانساني (ونستعمل هذا المصطلح هنا بمعناه الأوسع ، الذي يشمل أيضا السلوك النفسي والفكر والتخيل . . . الخ) يمتلك ، بالنسبة للبنيوية التكوينية ، طابعا بنيويا . وعلى النقيض .

اذن ، من البنيوية الشكلانية التي ترى في البنى قطاعا أساسيا ، الا انه مجرد قطاع يخص السلوك البشري الشامل والتي تطرح جانبا كل ما يرتبط ارتباطا وثيقا بوضعية تاريخية معينة أو بلحظة ترجمية (بيوغرافية) محددة ، منتهية بذلك الى نوع من الفصل بين البنى الشكلية وبين المحتوى الخاص لهذا السلوك - على النقيض من ذلك تطرح البنيوية التكوينية ، مبدئيا ، فرضية تقول بان على التحليل البنيوي أن يمضي بعيدا جدا باتجاه التاريخي والفردى وبأن عليه أن يصبح ، حين يبلغ درجة أكثر تقدما ، هو ذات جوهر المنهج الوضعي في التاريخ .

الا أن البنيوية التكوينية ستصادف هنا ، حين تجد نفسها أمام المؤرخ المهتم - قبل كل شيء - بالحدث الفردي في طابعه المباشر - صعوبة مناقضة لتلك التي تفصلها عن البنيوية الشكلانية ، وذلك لانه رغم التعارض الموجود بين المؤرخ والشكلاني فانهما يسلمان معا بنقطة أساسية ، هي التضاد بين التحليل البنيوي والتاريخ المعيني .

فمن البديهي ، والحالة هذه ، أن الوقائع المباشرة ليست ذات طابع بنيوي - فهي ما يمكن أن نسميه ، في لغة علمية ، بخليط يضم عددا ضخما من عمليات التبئين والتفكك التي يستطيع أي من رجال العلم دراستها كما هي في صيغتها المباشرة ، ومن المعلوم أن التقدم البارز الذي عرفته العلوم الحقيقية (الرياضيات وغيرها من العلوم القائمة على الأرقام) يعود تحديدا من بين ما يعود اليه ، الى امكانية الخلق التجريبي في المخبر لعدد من الأوضاع التي تعوض الخليط وتداخل العوامل الفاعلة ، المكونة للواقع التجريبي ، بما يمكن تسميته أوضاعا محضة : وهي ، مثلا ، تلك الأوضاع التي نستطيع فيها - بعد احاطتنا بكل العوامل الثابتة - أن نغير عنصرا ما وندرس فعله . أن وضعية مثل هذه يستحيل تحقيقها ، للأسف ، في ميدان التاريخ ، فهنا أيضا ، مثلما هو الحال في باقي ميادين البحث ، لا يتطابق المظهر المباشر للظواهر مع جوهرها (والا فان العلم سيصبح ، كما قال ماركس يوما ، عديم الجدوى) ، بحيث أن المشكلة المناهجة الرئيسية في العلوم الاجتماعية والتاريخية هي بالتجديد تلك المتعلقة بإبراز التقنيات التي تمكننا من الكشف عن العناصر الرئيسية التي يشكل اختلاطها وتداخلها الواقع التجريبي . وتمتلك كل المفاهيم المهمة في البحث التاريخي (مثل : النهضة ، الرأسمالية ، الانقطاعية ، والجانسينية أيضا ، المسيحية ، الماركسية . . . الخ) نظاما أساسيا مناهجيا من هذا النوع ، وأنه من أسهل الأمور أن نظهر كيف أن هذه المفاهيم لم تتطابق قط بشكل دقيق مع الواقع التجريبي الخاص . الا أنه يظل صحيحا هنا ، مع ذلك ، أن المناهج البنيوية التكوينية وأن مكنت اليوم من إبراز مفاهيم تضم وقائع أقل شمولا ، فانها تظل محتفظة ، طبعا ، بنظام أساسي مناهجي من نفس

النوع . ودون أن نؤكد هنا على المفهوم الاساسي للوعي الممكن ، لنحدد على الأقل أن البحث البنوي ، في توجهه نحو العياني ، سوف لن يكون له قط أن يمضي الى حدود الخليط الفردي وأن عليه التوقف عند البنى المتماسكة المشكلة لعناصر هذا الخليط .

وبما أن الواقع ليس جامدا على الإطلاق ، فربما تجدر بنا الإشارة الى أن الفرضية القائلة بأن هذا الأخير تشكله بتمامه عمليات تبنيين - فرضية تستأزم أن كلا من هذه العمليات يتضمن وجها اضافيا آخر هو أنها تكون في ذات الوقت عملية تفكك لعدد من البنى السابقة التي هي الآن في طريق التشكل على حسابها . والانتقال ، في الواقع التجريبي ، من هيمنة بنيات قديمة الى هيمنة البنية الجديدة هو ، تحديدا ، ما يدعوه الفكر الجدلي بـ **الانتقال من الكم الى الكيف** .

ولذلك سيكون من الاصح القول ان الواقع الاجتماعي والتاريخي فسي لحظة معينة يبدو دائما على هيئة خليط متشابك الى الحد الأقصى ، لا لبنيات ، وانما لعمليات من التبنيين والتفكك سوف لن يكون لدراستها طابع علمي الا حين يتم ابراز اهمها بالقدر الكافي من الدقة .

ولا تكتسب الدراسة السوسولوجية لقمم الابداع الثقافي قيمة مهمة على نحو خاص بالنسبة لعلم الاجتماع ، والحالة هذه ، الا استنادا على هذه النقطة بالتحديد ، لقد سبق وشهدنا على أن صفة ومزية الابداعات الثقافية الكبرى ، في مجموع الوقائع التاريخية والاجتماعية ، لا تكمن الا في تبنيها المتقزم الى أقصى حد ، وفي ضعف وقلة عدد العناصر المتنافرة التي تدمجها فيها . ويعني ذلك ، أن هذه الابداعات هي أطوع للدراسة البنوية من الواقع التاريخي الذي ولدها والتي هي جزء منه . كما يعني أنه ما أن يتم ربط هذه الابداعات الثقافية ببعض الوقائع الاجتماعية والتاريخية حتى تصبح علامات ثمينة تتعلق بالعناصر المكونة لهذه الوقائع .

ولذلك نرى الامة القصوى التي يكتسبها دمج دراستها في مجمل الابحاث السوسولوجية وفي علم الاجتماع العام (II) .

ثم هناك مشكلة أخرى مهمة بالنسبة للبحث ، وهي مشكلة التثبيت . ونحن نريد بمباشرتنا لها الإشارة الى مشروع نفكر فيه منذ مدة ولم نستطع بعد انجازه . ويتعلق الامر بالانتقال من البحث الفردي والحرفي (بكسر الحاء ونصب الراء) الى بحث أكثر منهجية ذي طابع جماعي بصفة خاصة . هذه الفكرة أننا انطلاقا من أعمال تحليلية لنصوص ادبية قمنا بها على بطاقات مخرومة تمتلك ، في أغلب الاحوال ، طابعا تحليليا وتنطلق من العناصر آمنة في التوصل الى دراسة شاملة ، الشيء الذي طالما بدا لنا أقل الاشياء اشكالية .

ان النقاش قديم ، وهو لا يزال مستمرا ، في العصر الحديث ، منذ

باسكال وديكارت : انه النقاش بين الجدل والنزعة الوضعية . فاذا كان الكل ، البنية ، العضوية ، الفئة الاجتماعية ، الكلية النسبية ، أكثر من الاجزاء ، فانه من الوهم الاعتقاد باننا نستطيع التوصل الى فهمها انطلاقا من دراسة عناصرها المكونة (بتشديد وكسر الواو) ، وذلك مهما كانت التقنية التي نستعملها في البحث . وعلى العكس ، يصح مع ذلك انه لا يمكن لنا ان نكتفي بدراسة الكل ما دام هو بدوره لا يوجد الا ككل من الاجزاء ، ومن العلاقات التي توحد هذه الاجزاء .

والواقع ان بحثنا كان يقوم دائما على تذبذب مستمر بين الكل والاجزاء ، حاول الباحث بواسطته ان يعد نموذجا كان يقابله بالعناصر لكي يعود في التالي الى الكل ، يدققه ، ثم الى العناصر ، وهكذا دواليك ، الى اللحظة التي يعتقد فيها - دفعة واحدة - ان النتيجة غنية بالقدر الكافي لان تستحق النشر ، وان استمرار عمله في نفس الموضوع يتطلب جهدا لا يتكافأ مع النتائج الإضافية التي يستطيع ان يأمل في التوصل اليها .

وقد فكرنا ، في هذا السياق من البحث ، انه باستطاعتنا ان ندخل طريقة اكثر نسقية ، وجماعية بوجه خاص . وذلك ليس في البداية وانما في مرحلة وسيطة .

وفعلا ، فما ان انتهى الباحث الى اعداد نموذج ظهر له انه يمتلك درجة معينة من الاحتمال ، حتى بدا له انه يستطيع ، بمساعدة فريق من المساعدين ، ان يتثبت منه بمقابلته مع كل العمل المدروس ، فقرة فقرة ان كان العمل نصا نثريا ، وبيتا بيتا ان كان قصيدة شعرية ، وحوارا حوارا ان كان مسرحية ، وذلك باثباتات :

(أ) الى أي حد تندمج كل وحدة من الوحدات المحللة في الفرضية الشاملة .

(ب) قائمة العناصر والعلاقات الجيدة التي لم تكن متوقعة في النموذج الاولي .

(ج) تواتر العناصر والعلاقات ، التي توقعها النموذج ، داخل العمل . وان لتفحص من هذا النوع ان يمكن الباحث في التالي من :

(أ) تصحيح خطاطته بحيث تشمل النص برمته .
(ب) ان يعطي لنتائجه بعدا ثالثا : هو بعد التواتر ، في عمل معين ، لمختلف العناصر والعلاقات المكونة للخطاطة الشاملة .

ورغم اننا لم نسنطع قط يوما ان نشرع في بحث من هذا النوع الواسع بما فيه الكفاية ، فقد قررنا اخيرا الشروع فيه بصفة تجريبية انصح القول ، كنوع من المثال المحتذى ، مع مساعدي في بروكسل ، حول زفوج جينيه ، وهو عمل كنا قد كوننا حول موضوعه فرضية متقدمة بالقدر الكافي (12) لقد كان تقدمنا في البحث بطيئا جدا ، بطبيعة الحال ، فدراسة نص مثل

نص **الزئوج** تتطلب وحدها أكثر من سنة جامعية . الا ان النتائج التي خرجنا بها من تحليلنا للصفحات العشر الاولى كانت مفاجئة ، في انطاق الذي مكنتنا فيه لا من مجرد التثبت ، وانما من القيام بأولى الخطوات مع منهجنا في ميدان الشكل - بالمعنى الاضيق للكلمة - وهو ميدان اعتقدنا حتى ذلك الحين أننا تركناه لاختصاصيين كنا نتأسف غاية الاسف لغيابهم عن مجموعات عملنا .

واخيرا ، لاجل اكمال هذا المقال التمهيدي ، نود الإشارة الى ان ثمة امكانية لم نستعملها بعد لتعميد هذه الابحاث وان كنا نفكر فيها منذ مدة ، انطلاقا من دراسة جوليا كريستيفا حول باختين ، المنشورة في مجلة كريتيك (النقد) (13) .

ومن البديهي ان ثمة في خلفية هذه الابحاث ، وان لم ننص على ذلك صراحة في هذا المقال ، مفهوما محدد للقيمة الجمالية عامة والقيمة الادبية بوجه خاص . وهي الفكرة التي طورها علم الجمال الكلاسيكي الالمانى ، من كانط ، مروراً بهيغل وماركس ، الى لوكاتش الشاب ، الذي يحدد هذه القيمة على أنها توتر بين التعدد والوفرة المحسوسين من جهة ، وبين الوحدة التي تنظم هذا التعدد في كل متماسك من جهة أخرى . ويظهر العمل الادبي من هذا المنظور ، أكثر صلاحية ، بالاحرى ، وأوفر أهمية الى حد أن هذا التوتر يصير في ذات الوقت أقوى منه ومخضعا (بفتح الضاد) بقدر أكبر من الفاعلية ، بمعنى أن الوفرة والتعدد المحسوسين لكونه هما أكبر عددا وأن هذا الكون أدق تنظيما ويشكل وحدة بنيوية .

وعلى ذلك ، فليس أقل بداهة كون كل أعمالنا تقريبا ، وحتى أعمال الباحثين الذين يستلهمون من كتابات لوكاتش الشاب ، قد ركزت بحثها على عنصر واحد من هذا التوتر ، هو عنصر الوحدة ، وذلك بايضاح أنها تأخذ في الواقع التجريبي شكل بنية تاريخية ذات دلالة ومتماسكة يوجد أساسها في سلوك بعض الفئات الاجتماعية ذات الامتياز ، وكانت كل أبحاث علم اجتماع الادب لهذه المدرسة موجهة ، بالمقام الاول ، لحد الآن ، الى الكشف عن البنى المتماسكة والوحدة ، المنتظمة للكون الشامل الذي يشكل ، تبعاً لكتابها ، مدلول كل نتاج أدبي ذي أهمية ، وقد قامت هذه الابحاث ، مؤخراً فقط ، كما قلنا ذلك أعلاه ، بأولى خطواتها نحو الرابطة البنيوية بين الكون (الادبي) والشكل الذي يعبر عنه .

ومع ذلك فان القطب الآخر للتوتر ، في كل هذا ، وهو التعدد والوفرة ، لم يتم القبول به الا كمعطى نستطيع أن نقول استنادا اليه ، على الأكثر ، انه يتشكل ، بخصوص النتاج الادبي ، من كثرة من الكائنات الفردية والحية الموجودة في أوضاع خاصة ، أو من صور فردية ، وهو شيء يمكننا من تمييز الادب عن الفلسفة التي تعبر عن نفس روى العالم على صعيد المفاهيم

العامية (فليس « الموت » هو ما في « فيدرا » ، ولا « الشر » هو ما في « فاورست » ، وإنما هناك فقط فيدرا المحتضرة وشخصية مفيستوفيليس المتميزة . وعلى العكس من ذلك فليس ثمة شخصيات مفردة لا عند باسكال ولا عند هيجل ، وإنما هناك فقط « الشر » و « الموت » .)

ومع ذلك فقد كنا نتصرف دائما - ونحن نتابع أبحاثنا في علم اجتماع الأدب - وكأن وجود فيدرا أو مفيستوفيليس معطى لا تأثير لهذا العلم عليه ، بل وكأن الطابع الحي بهذا القدر أو ذاك ، العياني والغني ، لهذه الشخصيات لم يكن سوى وجه فردي تماما للإبداع مرتبط ، في المقام الأول ، بالموهبة وبفسيقية الكاتب .

وقد بدأ لنا أن أفكار باختين ، كما تعرضها كريستيفا ، والصيغة التي تعطيها لها حين تطور مواقفها الخاصة بها والتي ربما كانت أكثر جذرية ، - بدأ لنا أنها تفتح مجالا جديدا تماما ومكملا للبحث (I4) ، السوسيولوجي حول الإبداع الأدبي .

ومثلما الحنا ، في دراساتنا العينية ، الحاحا يكاد يكون تاما على رؤية العالم ، وعلى تماسك العمل الأدبي ووحدة ، تلح كريستيفا بالضبط - وهي تحدد هذا البعد من البنية الذهنية في دراستها - البرنامج له ، عن حق ، بأنه مرتبط بالعمل (I5) ، وبالسلوك الجماعي وبالذوغمائية والقمع في آخر المطاف - تلح خاصة على طرح تلك للمناقشة ، وعلى ما يعارض الوحدة وما يمتلك ، تبعا لها (ونحن نعتقد أنها على صواب في هذه النقطة أيضا) بعدا نقديا وغير امتثالي . ويبدو لنا ، والحالة هذه ، أن كل أوجه الفتاج الأدبي التي تم الكشف عنها من طرف باختين وكريستيفا لا تتطابق إلا مع قطب الوفرة والتعدد في التصور الكلاسيكي للقيمة الجمالية .

أن هذا يعني ، بحسبنا ، أن كريستيفا تظل أحادية الجانب حين لا ترى في الإبداع الثقافي - بالمقام الأول ، وحتى وإن لم يكن ذلك بصورة مطلقة - سوى وظيفته الخاصة بالنزاع والتعدد (بـ « الحوار » المعارض لـ « المونولوج » ، إذا استعملنا مصطلحاتها) ، إلا أن ما وصفته لا يمثل بدوره بعدا حقيقيا لكل عمل أدبي مهم حقا . وفوق ذلك فإن كريستيفا ، وهي تشدد على الرابطة الموجودة بين رؤية العالم وبين الفكر المفهومي التماسك والذوغمائية ، قد أثار انتباه ، ضمنا ، إلى الطابع السوسيولوجي الخاص لا بهذه العناصر فقط ، وإنما بما ترفضه أيضا ، بما تعترض عليه أو تحيئته .

بإضافة هذه التاملات إلى الملاحظات التي طورناها إلى الآن ، نصل إلى أن كل الأعمال الأدبية تقريبا تمتلك وظيفة نقدية جزئية ، في النطاق الذي تتوصل فيه أيضا - وهي تبدع كونا ثريا ومتعددا من الشخصيات الفردية والمواقف الخاصة ، كونا ينظمه تماسك بنية ما ورؤية للعالم -

الى تجسيد الأوضاع التي تدّينها وتقوم - لاجل جعل الشخصيات التي تجسدها عينية وحية - بالتعبير عن كل ما يمكن صياغته انسانيا لصالح موقفها وسلوكها .

اي ان هذه الاعمال ، حتى وان كانت تعبر عن رؤية خاصة للعالم ، فانها قد سبقت ، وبفعل اسباب أدبية وجمالية ، الى أن تصوغ أيضا حدود هذه الرؤية والقيم الانسانية التي تنبغي التضحية بها لاجل الدفاع عنها .

وينجم عن ذلك أنه بإمكاننا الذهاب ، على صعيد التحليل الادبي ، وبطبيعة الحال ، الى أبعد مما قمنا به لحد الآن ، وذلك بالكشف عن كل عناصر العمل المتعكسة التي ينبغي على الرؤية المبنية (بفتح الياء) تجاوزها وتنظيمها . بعض هذه العناصر هي ذات طبيعة وجودية (انطولوجية) وخاصة الموت ، الذي يشكل عائقا مهما بالنسبة لكل رؤية للعالم من حيث هي محاولة لاضفاء معنى على الحياة ، وبعضها الآخر ذو طبيعة أحيائية (بيولوجية) ، وخاصة الليبيدو ، مع كل مشاكل الكبت التي يدرسها التحليل النفسي ، الا أن ثمة أيضا عددا لا يمكن إهماله من العناصر ذات الطابع الاجتماعي والتاريخي ، لذلك فان بإمكان علم الاجتماع أن يقدم ، من هذه الزاوية ، مساهمة مهمة باظهاره لماذا لم يختر الكاتب بالتحديد ، في وضعية تاريخية معينة ، من بين عدد كبير من التجسيديات الممكنة للأوضاع والمواقف المتعكسة التي يدّينها ، سوى بعض منها يحس به مهما على نحو خاص .

ان الرؤية المنتظمة للمآسي الراسينية تدّين ، جذريا ، ما دعونا به « الوحوش » التي يسيطر عليها الهوى و « المهرجين » الذين هم على خطأ دائما بخصوص الواقع . الا أنه سيكون كلامنا من نافل القول ان نحن ذكرنا بالقدر الذي يتجسد به واقع القيمة الانسانية لاورست ، أو هرميون ، أو أغريبين ، أو نبيرون ، وبريتانيكوس أو انتيوشوس ، أو هيبوليت أو تيسي في المأساة الراسينية ، وان نحن ذكرنا بالقدر الذي يعبر به نص راسين بطريقة مدركة عن مطامحهم وآلامهم .

ان على كل هذا أن يكون موضوعا لتحاليل أدبية مفصلة . بيد أنه يبدو لنا من الأرجح أنه ، اذا كان الهوى والسعي وراء السلطة السياسية يجدان في نتاج راسين تعبيرا أدبيا أقوى وأمتن من التعبير عن الضئيلة السلبية والعاجزة عن فهم الواقع ، فان تباين الحدة هذا في التعبير الادبي يعود الى الوقائع الاجتماعية والنفسية والفكرية للمجتمع الذي عاش فيه راسين وإلى الوقائع الاجتماعية التي كانت الجماعة الجانسينية تعارضها .

وقد اشرنا في مكان سابق الى واقع الفئات الاجتماعية التي يتطابق معها هارباغون وجورج داندان وشارتوف والسيست ودون جوان عند مولير (وهي : البورجوازية وجمعية سان ساكرومان وتعزيم النساك

والجانسينيون وارسقراطيو البلاط المغالون) ، أو التي يتطابق معها فاعنصر في فاوست غوته (فكر عصر الانوار) .

ونقف بجراسنتنا عند هذا الحد . ومن البديهي أن هذه الفقرة الاخيرة لا تمتك ، اللحظة ، سوى قيمة برنامج يتوقف تحقيقه على التطور الذي ستأخذة الابحاث السوسيوولوجية المستندة الى الابداع الثقافي مستقبلا .

نقل النص من الفرنسية : مصطفى المسناوي

هوامش :

(1) لذلك كان ديكارت مرغبا على تقليص القطعة الى آلة ، أي كان مرغبا على ازلتها من حيث هي واقع خصوصي ، ولم يترك لها سائر أي مكان في كتابه «الوجود والعدم» الذي لا يعرف سوى «الشيء» - في ذاته ، الهامد و «الشيء» - لذاته ، الواعي .

(2) انظر : لوسيان غوليمان : «الآلة المخفية» ، باريس ، غاليمار ، 1956 ، العلوم الانسانية والفلسفة ، باريس ، غونتيي ، 1966 ، «ابحاث جدلية» ، باريس ، غاليمار ، 1959 ، موضوع الابداع الثقافي ، بحث قدم في الندوة الدراسية الدولية الثانية لعلم اجتماع ادب ، 1965 .

(3) لهذا السبب ، اساسا ، تطالب الامر في فرنسا - التي نشر فيها كتاب فرويد الشهير (Trumdeutung) تحت عنوان علم الاحلام - سنوات عديدة قبل ان يفتن بعض المحللين النفسيين الى ان (Deutung) تعني «تأويل» ، واذا كان هذا العنوان لم يطرح في العمق ، ولزم طول ، اية مشكلة ، فذلك اساسا لانه كان يحظى بنفس مشروعية العنوان الاصلي . وفعلا ، فمن المستحيل فصل التأويل عن التفسير في التحليل الفرويدي ، وكلاهما يستندان على اللاوعي .

(4) لقد سبق انا القول بان المسألة تكون اسهل في حالة النصوص الادبية ، وذلك لاننا نستطيع ، بفضل البنية المتقدمة للمواضيع التي يدور حولها البحث ، وبفضل عدد المعطيات المحدود (كل النص ولا شيء غير النص) نستطيع ، ان لم يكن نظريا فعليا على الاقل تعويض هذا المعيار الكيفي ، في اغلب الاحيان ، بمعيار كمي ، هو : جزء ضخم بما فيه الكفاية من النص (5) نحن نلح على هذه النقطة لانه حصل لنا مرارا ، ونحن نتناقش مع اختصاصيين في الادب ، ان رأيانهم يزعمون رفض التفسير والاكتفاء بالتأويل ، في حين ان افكارهم كانت في الواقع تفسيرية مثلها في ذلك مثل افكارنا . لقد كانوا يرفضون التفسير السوسيوولوجي لصالح الاخذ بتفسير سيكولوجي كان قد اصبح ، ولطول الاخذ به ، مضمرا تقريبا .

والواقع ان تأويل عمل ما - وهنا يكمن مبدأ مهم على نحو خاص - ينبغي ان يشمل النص بأكمله على المستوى الحرفي ، ولا يحكم على شروعية هذا التأويل ، فقط وعلى وجه الحصر ، الا بالنظر الى اهمية الجزء الذي نحج في استيعابه . اما التفسير فعليه ان يأخذ تكوين النص بعين الاعتبار ، ولا يحكم عليه ، فقط وعلى وجه الحصر ، الا من خلال امكانية اقامة علامة متبادلة دقيقة ، على الاقل ، وعلاقة دالة ووظيفية ، ما امكن ، بين صيرورة رؤية للعالم ومكونات نص ما استنادا اليها من جهة ، وبين بعض الظواهر الموجودة خارج هذا الاخير من جهة ثانية .

ان الرايين المسيقيين الاكثر ذيوعا وخطورة بالنسبة للبحث هما : الاعتقاد بان على كل نص ان يكون «راشدا» أي مقبولا من طرف فكر الناقد ، من جهة ، ومن جهة أخرى : المطالبة بتفسير مطابق للافكار العامة التي يحملها الناقد أو الفئة التي يختمها اليها والتي يتبنى آراءها ؛ فالمطلوب في هذه الحالة كما في تلك هو ان تكون الوقائع مطابقة لافكار الباحث بدل

ان ينم المبحث ، على العكس من ذلك ، عن العقبات والمعطيات المبالغية التي تناقض ، ظاهرا ، الافكار التي يحملها .

6) على نفس النحو اضاف كاتب أحد الأعمال ، المعروفة بقدر كاف ، عن باسكال ، وهو يستشهد باثبات هذا الاخير الذي تكون بحسبه ، الاشياء صحيحة او خاطئة تبعا للجهة التي ننظر منها اليها - اضاف متكلما ، كديكارتي مخلص ، ان باسكال لم يحسن التعبير بطبيعة الحال وانه كان يريد قول ان الاشياء «تبدو» صحيحة او خاطئة تبعا للجهة التي ننظر منها اليها .

7) يشكل هذا الواقع في حد ذاته ، الشرط الابدستيمولوجي والنفسي الاجتماعي لهذا الخلل .

8) لنصف بخصوص هذه النقطة ان محاولة أولى شرعنا فيها حول مسرحية «الزئوج» لجان جيني قد مكنتنا من الإحاطة - بالنسبة للصفحات الأولى ، وبعبارة عن الفرضية الابتدائية حول بنية كون المسرحية - بسلسلة كاملة من العناصر الشكلية للنص . انظر ل. غولدمان : **البنى الأدبية والإبداع الثقافي** ، منشورات انتروبوس ، باريس .

9) العائق الرئيسي الذي تعاني منه اغلب الدراسات عن باسكال يأتي ، بالإضافة الى اشياء اخرى ، من واقع ان كتاب هذه الاعمال ، وهم ينطلقون من تفسير سيكولوجي واضح او مضمر لم يتصوروا قط ان باسكال قد استطاع ان يفتقل ، في بضعة أشهر ، بل وربما في بضعة أسابيع ، من موقف فلسفي معين الى موقف آخر يعارضه قطعا ، وانه كان ، فوق ذلك ، اول من صاغ (كتابته) في الفكر الغربي بمنتهى الوضوح ، واول من قبل ، وكان ذلك امر بديهي ، بوجود قرابة ما بين «القرويات» و «الخواطر» .

وبما ان هذين النصين لم ولن يتحملا تفسيراً موحداً ، فان البحوث المذكورين كانوا مرغمين ، والحالة هذه ، على اللجوء الى كل أنواع الطرق : فنجدهم يؤكدون على ان الامر يتعلق بمبالغة في الاسلوب ، او بنصوص كتبت لاجل الزنادقة ، او نصوص المتحدث فيها هو الزنادقة لا باسكال ، الخ ، وذلك لتفسير ان هذا الاخير كان يريد قول شيء ، او على الاقل كان يفكر في شيء ، هو غير ذاك الذي كتبه بالفعل . اما نحن فقد انطلقنا ، على عكس ذلك ، من معنى مخالف ، فبدلنا بملاحظة الطابع البالغ حده الاقصى من التماسك لكل من المعلن ، معرفة كيف استطاع فرد - وان كان نابغة - ان ينتقل بسرعة مماثلة لتلك من موقف الى آخر مخالف ، بل ومعارض ، له ، الشيء الذي قادنا الى اكتشاف باركوس والجائسنية المتطرفة ، التي اضاءت لنا المسألة على حين بقة .

وفعل ، فقد وجد باسكال امامه ، وهو منهمك في تحرير «القرويات» ، فكرة لاهوتيا واخلاصيا مسيحا يتمتع بقدر كبير من النفوذ في الوسط الجائسيني ينتقده ويرفض خاصة «قروياته» ، بحث كان عليه ان يتساءل لازيد من سنة عما اذا كان الحق معه او مع نقاده المتطرفين . وبذلك فان قراره بتغيير موقفه قد نضج شيئا فشيئا ، وليس ثمة شيء من العجب في تقبل ان مفكرا في سمة اطلاع باسكال ، نأمل لزمان طويل في موقف وانتهى الى الانخراط فيه ، يستطيع صياغة (تقارن مثل ذاك) دفعة واحدة ، بعد ذلك ، بمستوى اكثر جزية وتماسكا من المستوى الذي وصل اليه منظروه الرثيسيون .

10) هذه العودة الى العلوم التي كانت سلوكا منطقيا تماما ، صدمت ، بطبيعة الحال ، الجائسينيين الآخرين الذين لم يقبلوا ، وهم متيقنون من الوجود غير المتناقض ظاهريا لاله ، بالرهان ، ومن هنا نبعث الاسطورة الصيانية حول ألم الانسان الذي أدى الى اكتشاف الدويليب (السروليت) .

11) يمكن لدراسة الاعمال الادبية الكبيرة - في النطاق الذي تتجه فيه هذه الاعمال نحو الجوهري من الواقع البشري لعصر ما - ان تقدم بجورها اشارات ثمينة عن التبين السيكو - سوسولوجي للاحداث . هكذا كان بمقدار موليير ، على ما يبدو لنا ، ان يرسم ويمسك بجانب اساسي من جوانب الواقع التاريخي حين فصل ، في «تعزيم النساء» ، بين السعي لتجميع البورجوازية في المقاومة ضد التحولات الاجتماعية حيثة المهذ وضد الاخلاق الجديدة التي ولحتها هذه التحولات في البلاط خاصة ، وبين بعض تجمعات كبار النبلاء . وان محاولة اغواء اورغون محاولة اساسية في «تأوتوفه» كما ان عزم دون جوان على لعب دور الرجل الرحيم والانسك ليس سوى مبالغة ، ضمن مبالغات اخرى ، تتوضع على نفس الصعيد الذي يقف عليه ، مثلا ، الفجور ووضعه المستفز والمجازر للحدود في مشهد المتسول .

12) انظر لوسيان غولدمان ، مسرحية جينييه : محاولة لدراسة سوسولوجية ، فلافو رونو - بارو ، نوفمبر 1966 .

13) لنحدد هنا أننا لسنا متفقين كلياً مع مواقف كريستيفا ، وأن الملاحظات التي سنعرضها في هذه الفقرة هي ملاحظات لم يتم تطويرها الا بمناسبة قراءة دراستها ، دون أن نكون متطابقة تماماً مع ملاحظاتها .

14) تصنيف كريستيفا ، وهي تقسم الاعمال الادبية الى اعمال احادية واعمال حوارية ، ان الاعمال الادبية التي يصنفها باختين على انها احادية الصوت تتضمن بدورها ، اذا كانت مشروعة أدبياً ، عناصر حوارية وتقديساً .

15) حيث أننا لا نعرف اللغة الروسية . ولم نتمكن من قراءة كتاب باختين ، فانه سيكون من الصعب بالفسية لنا فصل أفكاره بوضوح عن امتدادها لدى كريستيفا . لذلك سوف نستند في هذا المقال الى الموقف برمته ونلحقه بهذه الاخيرة .

لوسيان غولدمان (يوخارست 1913 - باريس 1970) مفكر فرنسي دارت ابحاثه ، أساساً ، حول ما أسماه بعلم اجتماع الادب وعلم اجتماع الفلسفة - تعتبر أعماله مكملة لأعمال الفيلسوف والناقد المجري جيورجي لوكاتشي (1885 - 1971) . نشر عدداً من الدراسات الفلسفية والاجتماعية النقدية ، أهمها : « الجماعة البشرية والكون عند كائنه » (1945) ، « العلوم الانسانية والفلسفة » (1952) ، « الاله الختفي » (1956) ، « بحوث جدلية » (1958) ، « من اجل علم اجتماع روائي » (1964) ، ثم « الماركسية والعلوم الانسانية » (1970) (وهو الذي نقلنا عنه النص المنشور أعلاه) .

انتقد في كتابه « العلوم الانسانية والفلسفة » ، علم الاجتماع كما هو عند كل من دوركايم وماكس فيبر اللذين تنقصهما ، بحسبه ، الموضوعية العلمية ، وذلك لانهما لا يعترفان بالتحتمية الاجتماعية لكل فكر . كما قال ان أعمال كبار الكتاب والفلاسفة والفنانين تكون ممثلة للواقع كلما عبرت عن رؤية العالم المتطابقة مع أقصى قدر من الوعي الممكن لطبقة من الطبقات .

أما في كتابه « الاله الختفي » - وهو دراسة حول الرؤية الماساوية في « خواطر » باسكال وفي مسرحيات راسين - فقد سعى الى الاحاطة ، عنيها ، بالواقعي (أي بالنصوص المدروسة وبنيتها التصورية) والى استخلاص الكلية العقلية (الاجتماعية) التي جعلت هذا الواقعي ممكناً ، والى الاحاطة بالملاقة المتبادلة والضرورية القائمة بين الابداع الفردي والحياة الاجتماعية .

وبذلك توصل الى أن « خواطر » باسكال ومآسي راسين ليست سوى تعبير عمن (أو تمثيل لـ) الوضعية الماساوية التي تعيشها نبالة مثقفة موزعة بين أصولها وبين ارتباطاتها البورجوازية ، وممزقة بين العقلانية وبين الايمان - وهو تعبير ينتج في رفض العالم لدى الجانسينية وفي الرؤية الماساوية لدى كل من باسكال وراسين .

وحيث طبق غولدمان نفس المباحي على الرواية المعاصرة في « بحوث جدلية » و « نحو علم اجتماع روائي » ، خلص الى أن تطور الرواية الفرنسية من أندري مالرو الى آلان روب غرييه يعبر عن الانتقال من رؤية ميزت الرأسمالية المتنامية الى رؤية دالة تميز الرأسمالية ، وقد دخلت عصر التنظيم ، وهي رؤية يمكن تتبعها في « الرواية الجديدة » ، من حيث هي ادب لا انساني ومضاد لكل فكر ولكل ثقافة . (روبير - لاروس - موسوعة العالم المعاصر « الفلسفة ») .

✽ **بليز باسكال** (1623 - 1662) - عالم وفيلسوف وكاتب فرنسي اشتهر كعالم أولاً ، ثم كمفكر وفيلسوف ، توصل ، استناداً الى فرضيات توريشيلي ، الى قانون « توازن السوائل » - الذي يربط بين مستوى السوائل في الانابيب وكثافة هذه السوائل وبين الضغط الجوي ، داحضاً بذلك الفكرة الميتافيزيقية القديمة عن « خوف الطبيعة من الفراغ » . كما وضع - بالاشتراك مع فرما - أسس النظرية الرياضية في الاحتمال .

أما في المجال الديني - الفلسفي فقد اصدر كتابين هما : « الخواطر » ، و « القسرييات » .

في الكتاب الاول « يحلل على معقولية الايمان على أساس انه ليس ثمة أساس عقلي لا للايمان ولا لعدم الايمان ، وعلى ذلك لا يكون الايمان اقل معقولة من عدم الايمان » ومما

دام الامر كذلك فمن الاصوب ان نواجه على صحة الدين ، ما دامت هذه الخطة تتضمن الكسب اذا كان الدين صحيحا دونما خسارة فادحة اذا كان زائفا .
 اما ، القرويات ، فهو عبارة عن 18 رسالة جدالية دافع فيها عن الجانسينيين وهاجم اليسوعيين في تأويلهم للعفو الالهي .
 (روبير - لاروس - الموسوعة الفلسفية المختصرة - سبل الانسانية - الانسيان وفكسره) .

✽ **الجانسينية** : مذهب مسيحي يقوم على نكر الالوهي الهولندي كورنيليوس جانسينيوس (1585 - 1638) ، الذي اشتهر بكتابه « اوعسطينوس » المكتوب سنة 1628 والمنشور سنة 1630 . وهو كتاب سعى فيه الى احياء مذهب القديس اوعسطين حول العفو الالهي والقدر - بعد ان رقت الفيلوجيا اليسوعية من هذا المذهب ، واهلت محله حرية الاختيار وقدرات الانسان - محددا الحرية الانسانية انطلاقا من المبدأ القائل بان العفو الالهي لا يحضى به سوى قلة من الكائنات منذ ولادتها ، ويرفض الآخرين . (روبير - لاروس)

✽ **جان راسين** : شاعر وكاتب مسرحي فرنسي . تربى في دير بور روابال . اهم مسرحياته : اندروماك (1667) ، بريطانيكوس (1669) ، بيرينيس (1670) ، باجانزي (1672) ، ميتريدات (1673) ، ايفيجيني (1674) ، فيسترا (1677) . ثم استل (1689) واتالي (1691) وهما مسرحيتان ذلتا طابع ديني . (روبير - لاروس)

- **اندروماك** : مأساة مسرحية في 5 فصول ، مستلهمة من احدى مقاطع ابيادة فرجيل . في المسرحية ، لم تستطع اندروماك - امرأة هكتور - انقاذ ابنها استيفانكس من موت محقق الا بالزواج من بيروس ، ملك ابيير ، الذي كانت واقعة في أسرهِ . وحين جاء اورست ، سفير الاغريق ، الى بلاط بيروس لاستلام الابن ، وقف حب بيروس لاندروماك واورست لهرميون ، خطيبة بيروس المهجورة ، عقبة امام رغبة الاغريق . ويستغلل العقدة باغتتيال اورست لبيروس ، بوحي من هرميون ، وبانتحار هرميون وجنون اورست .

- **بريطانيكوس** : وهي مأساة مسرحية استوحى راسين موضوعها من تاسيت عن تيزون واغريين .

وتقول المسرحية ان اغريين (وهي الزوجة الثانية لامبراطور كلود) ، قتلت الامبراطور وتمكنت من اراحة ولي عهده ، بريطانيكوس ، عن العرش واضعة محله ايضا لها من زواج اول ، هو نيزون ، الا ان ظنها ما لبث ان خاب في نيزون الذي اخذ يسعى لابعادها عن السلطة ، فيسرت حب بريطانيكوس والاميرة الصغيرة جوني . لكن فيرون ، الذي اصبح مغرما بجوني ، قام بتسميم بريطانيكوس ، تساعد في ذلك فرسيس .

- **بيرينيس** - وهي مأساة مسرحية (مستلهمة من موضوع تاريخي حقيقي) تدور حول طرد الامبراطور نيقوس لحبيبتة ، الملكة بيرينيس اليهودية ، التي اتي بها الى روما بعد حصار لبيت المقدس ، رغم حبه الشديد لها . وذلك خضوعا للعداء الذي واجه بسببه الشعب الروماني مشروع زواجه . كما اضطر انقيوشوس ، وهو امير شرقي تربطه ببيرينيس حكاية حب تمس ، الى الابتعاد عنها بدوره ، يائسا من عجزه عن تحريك شعورها .

- **فيسترا** - وهي مأساة مسرحية في 5 فصول - مستوحاة من اعمال يوريبيد وسنيكا - تدور فيها هيپوليت - ابن زوجها تيسي - في غياب هذا الاخير واعتباره في عداد المفقودين . الا ان هيپوليت كان يتبادل واريبي الحب ، كما كان ولاؤه لاييه لا مطمئن عليه فيرفض هذا الحب . وفجأة يعود الملك ، فتتهم فيسترا هيپوليت لحيه بأنه حاول اغتصابها عنوة . ثم تخاف من عواقب كذبتها فتفكر في الاعتراف بالحقيقة ، لكنها تعلم بحب هيپوليت واريبي ، فتدفع بها الغيرة الى مواصلة صمتها الذي سيؤذي الى موت هيپوليت ، بعد تخلي ابيه عنه لانتقام نيزون .

(تدور هذه المسرحية حول القدر ، مثلما كانت تراه وتبشر به تعاليم بور روابال - وبذلك تكون هذه المأساة قد أعادت ادخال مفهوم القدر الى الخشبة الفرنسية ، وهو نابض اساسي في المأساة الاغريقية) .

(لاروس - روبير)

Opérateur	اجرائي
Structures mentales	البنى الذهنية
Structures catégorielles	البنى المقولاتية
Structure globale	البنية الشاملة
Génèse	التكوين
Vérification	التثبت
Découpage d'objet	تقطيع الموضوع
Shéma	الغطاطة
Etude immanente	الدراسة المحايثة
Significatif	ذو دلالة
Sujet transindividuel	الذات المفارقة للأفراد
Sociologie structuraliste génétique	علم الاجتماع البنوي التكويني
Relations interhumaines	علاقات بين - انسانية
Méthodologique	المناهجي
Constitutif	مكون (بكسر وتشديد الواو)
Unitaire	موحدة (بكسر وتشديد الحاء)
Issue intramondaine	مخرج داخل المجتمع
Univers imaginaire	الكون التخيلي
Noblesse de robe	النبالة المتقنة
Statut	النظام الاساسي
Conscience empirique	الوعي التجريبي
Fonctionnel	الوظيفي
